

كتاب

الأفكار والفكر

تأليف

م. حلمي سادة
في بيان تضادق تأخير المادية
في الفكر والفكر

M. HELMI SADEK
Directeur du Journal elAfkhar

﴿ حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ﴾

﴿ طبع بمطبعة جريدة الأفكار بشارع الشيخ زيان بمصر ﴾

(سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م)

كتاب

الأفكار

تأليف

م. حلمي سادة
بشارع الأفكار
م. حلمي سادة

M. HELMI SADEK
Directeur du Journal El Afkar

« حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف »

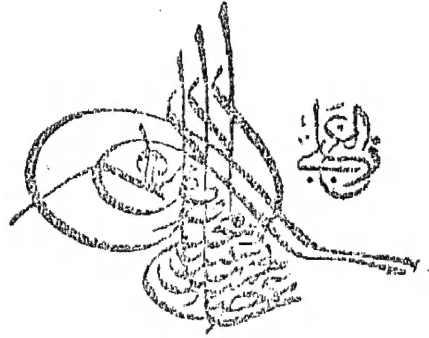
« طبع بمطبعة جريدة الأفكار بشارع الشيخ زيان بمصر »

(سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠ م)

هذا أمير المؤمنين تأدّبوا * يا ناظرين الى مثال جلّاله
هذا إمام العالمين تخشعوا * وتمسكوا بالعرش من أذياله
﴿عيد الحميد﴾ السميع مولى جمعنا * يدعو الأنام ليقتدوا بكماله



ربّ السياسة والكياسة والعلّي * يروي السعادة وجه طيف خياله
أيدهُ ربّي سرمداً وامتد له * أيدي المعونة في حفيفة حاله
ما قال (حلمي) للجميع تأدّبوا * يا ناظرين الى مثال جلّاله



اهداء الكتاب

لجلالة مولانا ملك ملوك الاسلام . وعمدة الدين وعماد الأنام .
أمير المؤمنين . ونفر الملوك والسلاطين . المؤيد بالروح الالهي والسبع
المثاني . سيدنا وإمامنا ﴿ عبد الحميد خان الثاني ﴾ صاحب العرش العثماني .
ومقيم الشعائر . في كل الشعوب والعشائر . وباسط الحدود . على كل
عوالم هذا الوجود . أدامه الله ظلاً ظليلاً ومنحه عمراً طويلاً .
من العبد الخاضع . الخالص المتواضع . كثير الهفوات . غزير
الزلات . محمد حلمي صادق نجل المرجوم على باشا صادق ناظر المالية
المصرية سابقاً

مولاي الامام العام . ومن هو بعد الرسول وأصحابه سيد الأنام —
أرفع بيد الرجاء والعبودية والاخلاص . كتابي هذا الى معاليك يا نضر الخواص
وأستجديك نوال القبول . فانه هو المسؤول المأمول . أرفعه وأشعر من
نفسي وضاعة القدر ومن سبتك رفعة الجنب وايسكن شجعتي ولائي

﴿ اهداء الكتاب ﴾

واخلاصي على هذا الأقدام . الذي سيكون دليل خير لبني الإسلام . ضمنت
كتابي هذا يا مولاي آيات آداب الأئمة . وواجبات الرعايا ووظائف المهتم .
مؤملاً هداية قومي الى السبيل الأئمة . سبيل الأدب والفلاح . بحسن
الأدب معك يا حفاظ الأموال والأرواح . ضمنت أحكام الدين الحقة . وبراهين
الولاء الصادقة . وأمور الكمالات . والحكم المهدبات . والعظات المؤدبات
والمزاجر المشدبات . ليعقل الناس معنى الإمامة والخلافة . ويفقهوا حقوق
الطاعة والخصافة . وليكونوا على هدى من دينهم نحو امامهم الكريم .
وسلطانهم العظيم . ومليكهم الفخيم . ونبراس تقدمهم وسعادتهم . وسياج
حياتهم ووجودهم . ألا وهو انت يا امير المؤمنين . ضمنت كيف يكونون
مسلمين . وعلى سنن سلفائهم قائمين . ولدينهم وولائهم مقيمين . ليحفظوا لهم في
سجل الحياة قدراً . ويدونوا في صحف التاريخ منقبة سامية وفخراً . ضمنت
تعاليم عصرية . تمثل لهم حقوق الراعي على الرعية . حتى لا يجدوا وجهاً
للاعتذار . عن تلك الأوزار . التي انقضت ظهورهم واثقلت عواهنهم .
واقعدتهم عن درك اسباب السعادة الحقيقية والكمال المحبوب . ضمنت
ما لو قرأ الضال لا هتدى . والفاسق لا اعتدل واقضى . والشارد لرجع
وثاب . والمارق لاسترشد وتاب . والفارُّ الأبق لندم واسترحم .
والواشي التمام لاستغفر واستعصم . كل ذلك جهاداً في سبيل رضاك
يا مولاي . لا عنقادي اني لو حصلت على نعمة الرضاء منك لأيقنت
برضاء الله عزّ وجلّ . ورسوله الأكرم الأعدل . لانك ثالثهما في
وجوب الطاعة . ونوال الشفاعة . ولعلي أجد نتيجة لهذا الجهاد . وأجني
ثمرة هذا الاجتهاد . فاحرز القبول . حيث أقول

﴿ اهداء الكتاب ﴾

بعد اهداء الراشدين إمامي * ﴿ عبد الحميد ﴾ خليفة الاسلام
 نخر الملوك وتاج عز وجودهم * عوناً لدين الله والاحكام
 برّ بكل المؤمنين وراحمهم * شمل الضعاف بوسع الأكرام
 محيي الشريعة بالخلافة والحق * والعدل والتوفيق والالهام
 عين العناية بل وساء حماية * كاف الصكناية راحم الأيتام
 راء الرعاية للرعية صكهنها * ميم لمجد العصر والقوام
 سين السعادة والسيادة سرها * واو الوفاء أخو الولاء السامي
 هذا الكتاب رفعت له جناحه * لأحوز فضل السبق بالاقدام
 لا غرو أن رفع العبيد للسكة * طرس الولاء مصصح الأرقام
 (حلمي) لمولاه ﴿ الحميد ﴾ مقرر * حسن الخضوع وشاكر الانعام
 يرجو القبول من المليك لعله * يلتقي سعادة بدئه بختام
 هذا طرس الولاء المصحح الأرقام . أبسطه بين يدي أمير المؤمنين
 وخير إمام . وأرجو به أن أنال سبق الاخلاص . في حظيرة سيدي فاكون
 له من الخواص . وقد آليت على نفسي أن لا أنفك عن خدمة ولائه
 السامي وحقوقه العامة . مرشداً عقول الأمة . ومنبهاً عواطفها الى خير خطة
 وأشرف منهج وفقني الله واخواني لأن نكون دائماً محرزين رضاء سيدنا
 ومولانا . ومالك زمام هدايا . أعزّه الله وأيده ومكنه من الظفر باعداه
 إن ربي قدير على ما يشاء (بنده)

محمد حلمي صاوق

صاحب جريدة الأفكار بمصر



— خطبة الكتاب —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الولي الحميد . ذي العرش المجيد . الفعال لما يريد . سبحانه
بعث في عوالمه روح الوزع فقامت على أكمل نظام . وبسط على أرواح
الوزّاع أجنحة الاعتدال فعدلوا بين الأنّام . وجعل عباده شعوباً وقبائل .
للتعرّف بوسائل الارتباط وأيّ وسائل . ورأس على كل أمة إماماً . وممكنه
منها تصرفاً وذكماً . وفصل في كتابه الحكيم . واجبات كلّ مع التعليم .
والصلاة والسلام على روح الحياه . وعنوان الشرف والجاه . ونور القلوب .
ونبراس غيب النيوب . وعين الله البصيرة بالعباد . ورحمة الله المنبثة
في البلاد . الرسول الخليم الرشيد . ذي الخلق العظيم والرأي السديد .
محمد بن عبد الله . القائم بأمر الله . المبلغ عن الله . وآله الاطهار . وصحبه
الاخيار . ما أشرقت شمس النهار . على عاق أو بارّ .

﴿ أما بعد ﴾ فإن من أكمل مواهب السعادة للمرء حصوله على نعمة
 الآداب مع ربه جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم وإمامه رضي الله عنه ،
 ومن أجمل فصول الحياة التحلي بحلية الولاء الحقيقي والحب الصحيح للوازع
 الديني الأكبر الذي يمثل مركز الرسالة الأنور على عرش التشريع الأطر
 ولما رأيت من الهمم بعض النقص عن استكمال تلك المواهب
 السعيدة والنقص عن استدراك الأدب الصحيح مع جلالة الخليفة الإسلامي
 العام في هذا العصر المنير ألا وهو صاحب الشوكة والعظمة والاقنطار
 مولانا أمير المؤمنين السلطان ﴿ عبد الحميد خان ﴾ انبعثت في روح النشاط
 لوضع كتاب (آداب الولاء وحقوق الخليفة) هذا الذي جعلته بمثابة دستور
 عام لا خلاق الأنام ومهذب للعقول ومشذب للنفوس ضارباً فيه عن التطويل
 والفضول . والتعقيد المملول ومستنداً على أقطع الآيات وأظهر الآثار .
 ورجوته تعالى أن يوفقني فيه إلى سبيل الرشد والنجاح . ويعينني على تبيين المقاصد
 بياكل وسائل الإيضاح . حتى لا أدع مندوحة لمتكلف عذراً . أو عذلاً لمرتكب
 وزراً . فجاء بحوله تعالى وببركة الولاء الحق لصاحب الخلافة العظمى على أعدل
 منهج وأقوم عبرة . مبشراً أهل الاخلاص بخلود أرواحهم الطيبة في عابدين .
 ومنذراً أهل الشر والمروق بأن ستسجن نفوسهم الشريرة في سجين
 فبعد التجرد من الحول والقوة والاستعانة بمعونة الإله القادر على
 ما يشاء أشرع في المقصود . مستعيناً به من نفثات الشياطين والاعداء ذوي
 الجحود والدود . مفتحاً هذا الكتاب الجليل بمقدمة أشرح فيها بطريق
 إجمالي ما يجب على الأمة لإمامها والامام لأئمة ومفيضاً الحديث فيما يمثل
 سوءات المفترين المرجقين وهالك المقدمة أولاً :

﴿ المقدمة الأساسية ﴾

﴿ لمرشد الكتاب ومقاصد الواضع ﴾

إن الشرائع الإلهية قضت باحترام أولي الأمر وحظرت الخروج عليهم وفرضت طاعتهم على كل فرد من بني النوع البشري وطالبته بذلك بلا نظر إلى الصبغة والنحلة قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) وعلى هذا درجت القوانين الوضعية فحرمت انتهاك حرمت الملوك والأمراء ونهت عن التطاع إلى مناصبهم ومراتبهم وأوجبت على كل مكلف أن يظهر بأكمل مظاهر الولاء والاخلاص والأدب لولي أمره وحامي حماه . ومن شدة عن مرشد الشرائع الإلهية والوضعية فلا يستحق الاعتراف بوجوده الحيوي الانساني بل يجب نبذه من محاضر الاجتماع البشري جزاء شططه واعتدائه على النواميس المقدسة

ومهما يكن من أمر المرء في حياته فلا يبلغ مبلغ الافتئات على شرائع العالم وليس في وسعه اكتساب سلطة عقلية يتسلط بها على العقائد الراسخة في عقول الكافة . ولو تخيل انسان أن لديه قوة فكرية تؤهله لمعالجة العالم أجمع فلا يلبث به أن يفقد حظ العقلاء في حياتهم من الأدب وحسن النظر في عواقب الأمور . فاذا اندفع مع تيار غروره وفارق اجماع الامم وتشرد عن عقائد الكافة فلا يسمع قوله ولا يلتفت الى ثرثته وبهتانه لأنه يعتبر ضالاً مضالاً وبغياً غوياً تأنساً في متاهة الجهل يطلب المجهول المطلق . وطالب المجهول المطلق في عرف أهل الحكمة والعلم محزن فاقد العقل والتدبير وبعيد عن الشعور المعتدل وليس له وجدان صحيح

قلتُ كثيراً في تواريخ الأمم وحوافظ حياتها فلم أجد أمة قلت إمامها
تفرض ذاتي أو شهوة نفسانية إلا في هذا العصر الذي دخلت على المسلمين
فيه دغائل الفساد في أمثال التمدن والحضارة والحرية المبتدلة . فان الزعانف من
حشالة الأتراك عمدوا إلى التشرد في أنحاء المعسور . والنقلب مع ظواهر الأمور
ونادوا بالحرب والويل والثبور . على كل مخلص لسيدته وإمامه وولي أمره
المقدس الأُمير والولاء شرعاً وعقلاً

أجل : إن العقول إذا تضاربت في أمر رجع اجماع أكثرها وأهمها
شدوذ الأقل . وهذه قاعدة عمومية توخاها العلماء في قضايا العلوم والمباحث
العمرانية والتراثي التحكيمي في كل حكومة . وشعب . فمن الغريب أن يصرّ
المرجعون المارقون على شدوذهم وهم نزر يسير لا يذكر بجانب السواد
الاعظم وجمهور العقلاء من علماء وساسة . ومفكرين وذوي فراسة . حيث
قضوا بان جلالة مولانا الخليفة ﴿ عبد الحميد خان ﴾ هو الامام الاسلامي
المتبع قوله والواجب الخضوع لأمره ورأيه . فأين أولئك الفرقة المتشردون
من تلك الامم الحافظة لذمام أمتهما وهي التي تحرّم على القلوب أن يختلج فيها
شعور بغير الحقوق الولائية المقدسة .؟ أين هم من الآداب الحقوقية
والوجدان الشريف .

قرر علماء الاخلاق أن المرء الخلو من الأدب لا يعتبر في الهيئة
الاجتماعية بل يسقط من سجل الانسانية ويلحق بالهم السوائم لان الادب
هو القوام الاجتماعي والحياة السليمة من مدق النفار والشر . وأن من أوليات
الاخلاق توجيه مطالب النفس الى الاعتدال المشروع واكتساب فضيلة
السيق في مضمار الكمالات البشرية . ويضمن هذه الكمالات ويحفظها من

عوادي التطرّف والخروج شعور النفس الانسانية بالحقوق المتبادلة واحترام
مراجعتها وآدابها . والمميز لصحة العقل من اعتلاله ظهور الانسان بمظهر
المحافظة على مرشد الشرائع المقدسة التي تدعو الى احترام أولي الأمر
وتقديس أميالههم وآمالهم . فيتضح لكل عاقل ان عدم الادب من أخس
الخلال المقبولة التي يخشى منها على مجد الامم وشرفها لانه خطيئة كبرى
والخطيئة اذا ظهرت ضرّت صاحبها وضرّت العامة كما ورد في شريعتنا
الحمدية . والاخلاق الرضية من أعظم وسائل السعادة وأسباب التقدم في
الحضارة . ولا مشاحة في أن المؤدّب يرضى عنه كل الناس وقليل الادب
محجوف مملول لا يذكر بخير أبداً . ولا يتمثل اليراع في تقويم أحوال المتشردين
القررة الا بقول ابن الرومي :

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى * ودينك موقور وعرضك صين
فلا ينطلق منك اللسان بسوءة * فلناس سوات وللناس ألسن
وعيناك إن أدّت اليك معائباً * لقوم فقل يا عين للناس أعين
ولا يجمل منا أن نزلق في مزلق الوقاحة كما زلقوا واستحقوا أن ينطبق
عليهم قول القائل :

قوم هم السوم لوزال النعيم بهم * ما عدّهم أحد إلا من البقر
كبر بلا كرم زهو بلا حسب * عجب بلا أدب هذا من العبر
ثم وقد ورد عن أكبر الصحابة وأتقاهم سيدنا أبي بكر الصديق أنه
روى عن الرسول قوله صلى الله عليه وسلم (السلطان العادل ظل الله في
أرضه فمن نصحه في نفسه أو عياده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل الا ظله
ومن خانته في نفسه أو عباد الله خذله الله . يوم القيامة يرفع للسلطان العادل

في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم مجتهد لنفسه) وليس العدل الا العمل على
حماية حقوق الله وعباده وتحكيم أحكام الدين القويم . ولا يضمن العادل
لعدله أن يرضى عنه كل الناس . فقد ورد

إن نصف الناس أعداء لمن * ولي الأحكام هذا ان عدل
ومنذا الذي يعنيه الغرض ويقول ان جلالة مولانا السلطان عبد الحميد
غير عادل ؟. مع أن دلائل العدل أظهر من أن تنشر وقد استوى في عدله
الصغير والكبير ولم يشع عنه العسف والجور الا أعداء ولأته وعرشه الدعيم .
هل يعنفدون أن العدل هو بذله المال لهم ومنحهم الآلاء والنعم من غير
استحقاق ؟. إن هذا هو الخلل الكبير . ألا لا يتوهم قاصر أننا نرمي الى
أن جلالته يرضى بما يملك على أحد فان مآثره الفراء تمثل لنا الكرم الحائمي
وأكثر صفاته الجميلة الجليلة تحكي لنا أخلاق الأطهرين الأصفياء

للشمس فيه وللرياح وللسحاب * ب وللبهار وللأسود شمائل
كيف نرتاب فيما لجلالة مولانا من الهبات الوافرة التي غمرت كل
الناس لا فرق فيهم بين فقير . وغني وصغير وكبير . وخفير ووزير . وصعلوك
وأمرير . وناهيك بمليك استوى في عدله وجوده كل الناس ولم يلق الا
الثناء من الكل والرضاء العام

ألم تر أن جلالته يحترم الحقوق الانسانية ولا يضره التباين في الدين
عن التفضل باكرام الاغيار من اليهود والمسيحيين . تالله إن من لم يحتفظ
على الأدب مع هذا المليك المدبر لأموار عباد الله بالعدل والمساواة لا بد
وأن تلقى المدهمات التهاماً . على أن جلالته أحرز من جلائل آي الصفيح
الجميل والعفو الكريم ما ينفذ القلم عجزاً عن استكمال وصفه

وله من الصفح الجميل عوائد * أسر الطليق بها وفكّ العاني
وكيف لا وهو الذي شاد عماد الآداب الحقيقية وضرب بيد الوزع
الذي على النفوس الشريرة فقرت وهاجرت، ولو كان في سويداء قلوبها حب
الدين لما هجرت دارها وخفت متظيرة بآثام الانكار والولولة واليكاء بسائر
الأنحاء .

حفظ جلالته للدين آذابه والمروعة أسبابها وللأمة حقوقها ولم يجرح
احساساتها بما يضعف فيها روح الامل وقوة العزيمة . واذ رأى أنظار الاعداء
تطلع الى كعبة الحرم المصطفوي عهد الى انشاء سكة حديدية ليتي بواسطتها
حرم الحرم من عاديات الأمم

تعرف في عينه حقيقة * كأنه بالركاء مكتحل

اشفق عند انتقاد فكرته * عليه منها اخاف يشتعل

نعم لجلالته بواذر تتي شأن الملوك العظام الذين يهتمون بشؤون رعاياهم
فان الله ملك الملوك وقلوبهم بيده يقبلها كيف يشاء . فتارة يتجلى الله على
قلب جلالته بالبسط ويبعث فيه روح البشر والحبور والصفو فيعطي ويفيض
كالبحر الزاخر . وطوراً يلهمه الله صوالح عبادته ويتجلى عليه بالغيرة والحمية
فيجمعهم للم شعث المسلمين وجمع كلمتهم . وتوحيد سلطتهم . وتمجيد سمعهم
وتقويم نشأتهم بدولتهم . فيحسبه الجاهلون غاضباً لنفسه يقدم مصلحته على
مصلحة أمة . مع أنه أغنى ملوك الارض قاطبة ولكنه باذل كل موارد ثروته
في سبيل تقويم الدين وتأيد أركان الدولة المحروسة . ولم نسمع بمشروع جليل
يتعلق بالأمة ودينها ومجدها الا وجوده وكرمه اليد الطولى في الاعانة والبر
والتبرع قبل كل انسان مع انه في واقع الأمر يملك كل المؤمنين وأموالهم

وأولادهم ليتصرف بهم وبأموالهم في مرضاة الله ورسوله :
هو البحر غص فيه اذا كان ساكناً * واياك فاحذره اذا كان مزبداً
واقعد طالت المقدمة ولكنها على جدوى فاننا فيها نذكر بالحق
والصلاح . والذكرى تنفع المؤمنين . الذين يجب عليهم جميعاً أن يلتفتوا حول
عرش هذا الامام الكريم ويطأطئوا رؤسهم له خضوعاً وخشوعاً ويأتمروا
بأوامره ويحجبوا نواهييه قياماً بشعائر الدين الحنيف الداعي الى ذلك .
وليس المقام مقام مدح واطراء فان المدح والاطراء لا يتأديان بصيغ العظة
والاعتبار الا اذا كان الحال على ما ذكرنا من هجر الناس لحقوق الولاء
بلا توشح الحكمة في ذلك غير التأثير بمؤثرات الدخيل الذي يود أن يفسق
مجموعنا ويحل عرانا ويشنت شملنا . وقد علمتم أيها الاخوان مما تقدم أن
الأدب حفاظ الخلائق وسياج الحقوق بل وعدة المؤمن وقلب الايمان فان
الانسان لا يصلح للتعبد والصلاح الا اذا ذاق طعم العبودية الصحيحة وألمَّ
يحافظ الأدب المشروع خصوصاً مع إمام كريم

عشق المكارم فاستهان بذكرها * والمكرمات قليلة العشاق
وأقام سوقاً للنساء ولم تكن * سوق النساء تعد في الأسواق
فاذكر صنائعه فلنصنأ * لكنهن قلائد الأعناق
والثم أنامله فلن أناملاً * لكنهن مفاتيح الأرزاق
هذا الهمام صاحب الهمم السماء . والأأيادي البيضاء . والصفات الفراء .
والآثار الوضوء . والفيرة الصحيحة . والآراء الرجيحة . والعقل الكبير
الوافر . والفكر السديد الذاكر . والفؤاد الواسع . والعواطف السوامع .
له هم لا ينتهي لكبارها * وهمة الصغرى أجل من الدهر

هذا الخليفة الذي يبرأ الى ربه من حوله وجاهه ولا يميل الى اقنائه
شيء من مال الملك الذي بين يديه بل هو :

عف المكاسب لا تكدي حشاشته * كالبحر يلحق بالتيار أنهارا
والخلاصة : أننا نقصد في كتابنا هذا تنبيه القوم الى واجب مقدس
محترم في شرائع الأمم الهيا ووضعها هو الأدب الحقيقي مع ولاية الأمور
مع بسط حقوق الخليفة العام على أمم الاسلام في كل قطر وولاية وإيالة
حتى يظهر للناس سر الاتحاد المحبوب . والاجتماع المرغوب . والوحدة
الاساسية للدين الخفيف . فبالرغم عن تهديد المنذرات لكل خائن مارق
نقول لكل ذي خلق سافل . طريد فارّ غافل

أنت مشور غوي مترف * ذو غوايات ومسرور بطر
ولا نبالي في وجهتنا هذه من لئيم لائيم . أو متحرش فاجر آثم . أو وشاية
بني غاشم . وحسبنا شرفاً أننا نخدم الحق الصريح ونضرب على الباطل
الزاهق ونطارد وساوس المغررين المفسدين ونظهر براهين ولائنا وخضوعنا
لجلالة سلطاننا واماننا أمير المؤمنين السلطان الغازي (عبد الحميد خان) أدام
الله لنا أيامه مكالمة بأكاليل السعادة والفوز العظيم

ولا يقدر حقود مهما كانت عقارب حقه تدب في قلبه أن يرمينا
بالعرض فأننا بفضل الله ورعاية مولانا أمير المؤمنين في غنية عن الاستزادة
من الدنيا وقانعون بما يسره الباري لنا من موارد الرزق واليسار . فلا تؤثر
على اخلاصنا وشاية الواشين أو سعاية الساعين أو نعمة النمامين بل نسلى انفسنا
بقول القائل :

إذا سرى خبر شاعت شوائعه * وكنت تكره أن يدري به أحد

فلا تقابله إلا بالسلو ولا * يحزنك ما قال حسادٌ وما حسدوا
 جعل الله خدمتنا خالصة لوجهه الكريم وحفظ يراعنا من الشطط
 والزلل ودفع عنا أسباب العلل والملل . اللهم احلل عقدة من لساني يفقهوا
 قولي واجعل لي وزيراً من أهلي * انك بالسرائر عليم . وبالحقوق بصير
 وبالتوفيق جدير . والآداب كفيل . فانت حسينا ونعم الوكيل

﴿ الباب الأول ﴾

﴿ في معنى الأدب وفيه فصول ثلاثة ﴾

﴿ الأول في الأدب مع الله الثاني في الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم ﴾
 « الثالث في الأدب مع الخليفة وولائه العام »

﴿ ما هو الادب .؟ ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أدبي ربي فأحسن تأديبي)
 والأدب شعار النفس الحية الكريمة التي تشعر بالأقدار وتجد بوجودان غير
 جامد وتذوق طعم الحياة وتشوف للفضيلة باجتنب الرذيلة . ولا تعريف
 يشتمل على معاني الأدب وفصوله وأصوله وواجباته غير — حكم النفس
 يحواكم النواميس وعوامل الشرائع — أو بالأحرى — تلبية الشعور لنداء
 الفضيلة ووصول صوت المزاج الى الضمائر . فتفعل وتتأثر وتنكمش عن
 بسط شهوات النفوس . وترجع الى التقيد بالناموس
 وقد قال علماء الشرائع : ان من لا أدب له لا حياء له ومن لا حياء له

لا دين له ومن لا دين له فهو مهمل في الحياة تعبت به أهواؤه (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) وليس الأدب هو حفظ القواعد ومعرفة الفنون والعلوم فان ذلك ينير الأدب الصحيح يفعل في النفس فعل المحرضات على ركوب غارب الفساد والبعد عن الإصلاح . ويكون من هذا حاله ممن أضلهم الله على علم فبأوأ بالخسران المبين . فالأدب حياة مكتسبة تتأصل بها في النفس أخلاق فاضلة وخصال كريمة تحفظ لصاحبها وسائل السعادة والاحترام كالشهادة والمروءة والذكر الحسن

ولم يرو لنا التاريخ أن ذمماً أو هجاء أو ثثاراً مشاءً بنيم معتدياً أثماً يعد في صفوف أهل الأدب مهما كان علمه وحفظه ومهما بلغت به الرواية والدراية فان الحماية تصحب قواده فتصرفه عن الكمال الى نقيضه . ولا تسئل عن حال نفس تسجلت شقوتها وتحكمت جفوتها . وتحققت سقطتها . وبلغ الناس عنها سوء التربية وفساد الأخلاق وانتهاك الآداب وترك الحقوق والتعلق بأسباب العقوق . فانها نفس شريرة تعيسة بئيسة عرضتها النوازل لأنواعل والعوامل وحركتها الشهوات لطلب الغايات وفارقها الكمالات وجافتها السعادة فانحطت عن مراقبي النجاح والفلاح . وانفلتت من عقد الإصلاح . وشط بها المزار فلا كانت ولا كانت آلهما . وعدمها أنفع من وجودها . لأن النفس التي لم تتأدب ولم تهذب وتتشدب سقيمة في هوة الخطيئة . ومبتذلة بين العشائر المعتدلة . ومعدودة من النفوس المطرودة . ومملوكة لشیطان الهوى وغواياته . ومأسورة لدواعي الأذى ووشاياته وسعاياته . فبئست هي من نفس افضل منها العجاوات السوائم . حيث تجردت من كل المزايا والمكارم . وانغمست في المنارم والمآثم . واشربت

حب الفساد والثرثرة بين العباد ولم تخش يوم التناد . يوم توقف مسئلة
وتسأل عما جنته الذليلة . الموصومة بكل رذيلة . فلا تجيب بجواب . لسوائه
صحيفتها عند نقاش الحساب . ولو ان هذه النفس الأتمة بالسوء عقلت
لحياتها معنى ولم تفارق بشططها أوضاع الشرائع لفقحت ان الدنيا شيء باطل
وزائل قال تعالى (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي
أرض تموت . انما الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال
والأولاد) ودنيا عرفها الله بانها تصب من هو الخ لا تستحق العناية ونبد
آداب الحياة ومراشد الشرائع المقدسة . لان الحياة الصحيحة تبت في
صاحبها آميلاً صالحة وآمالاً ناجحة وتحليه بحياة الادب الديني والمدني
فتقلب الدنيا في اعتباره من لب وزهو ولهو الى حقائق توصل الى حقائق
ومعارج ترفع الى عروش السعادة وذرى الفلاح فتكون مزرعة للدار
الآخرة ومنبتاً لمراس الفضيلة الحقة التي تكال صاحبها باكليل الاعتدال
وتوجه بتاج الفخار والجمال والجلال . ولا شيء يقدر في سمعة المرء ويشينها
ويعرضها للمزال المهينة والمزالق المندرة بالخطر على الحياة والجاه غير فقد
الادب وضياع الفضيلة . أما النفس التي تحت بالادب وتدرت بالحياء
وتسرلت بسربال بطائته اخوف من الله وظهارته الرجاء فهي النفس المطمئنة
التي يناديها ربها في حظيرة قربه (يا أيها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك
راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) فانظر أيها القارئ الكريم
الفرق بين الشأتين نشأة السوء ونشأة السعادة وبين النفسين النفس الشقية
التعيسة المطرودة والنفس السعيدة المطمئنة المحترمة المعدودة المسعودة
انعمد اجماع العقلاء على أن أكبر الاعداء أخفاهم مكيدة . فلا غرابة

إذا تستر أعداؤنا بزعانفنا واتخذوا الأذعياء . وسائل للدعاء . فلاجل مليء
بطونهم لهباً . وجيوبهم ذهباً . يبنذون حسباً . ويتركون نسباً . ويقولون
أدباً فليس العدو من تدرع وتقنع . إنما العدو من تخدع وتصنع . ليس
العدو من عرفناه عدوًّا إنما العدو من كان منا وهجرنا طوعاً لهواه . وعبادة
لدينار والسمعة والجاه . فقد قال الحكيم : أنظر في القول لقائله . فان كان
ولياً فهو الولاء وان خشن . وإن كان عدوًّا فهو البلاء وان حسن : فمن لقينا
يأنف طويل . لقيناه بخرطوم فيل . ومن لحظنا بنظر شرر . بعناه بثمان نزر .
وعلى هذا يظهر للناقد الخبير ان الخارج على جلالة مولاه هو العدو المفارق للدين
والمعادي للمسلمين والنازع الى افساد ذات الين . ولو كان في القوم عقل
يحي ويقتل لتدبروا وعقلوا ان قيامهم في وجه الولاء بالعداء يمهّد السبيل
للدخلاء . ويفضي الى البلاء والنزاء . ولو كانوا يعملون ذلك ويقصدونه فهم
الخاسرون الذين تجب مقاتلتهم شرعاً ونظاماً وعقلاً وذكماً كما هو مبسوط
في كتب الشريعة المطهرة التي جاء فيها أن الخارج على الامام خارج على
الاسلام والخارج على الاسلام يقتل ويهدر دمه ومن هدر الدين الحنيف
دمه وجب على كل المسلمين ان يبنذوه ويهجروا اقواله ويقبحوا فعاله ولا
يمكنوه من ان يأوى اليهم أو يهوى الى محضرهم أو عشائهم

فيا أيها المسلمون بسائر أنحاء المعمور — اعلموا ان دينكم يقضي بمقاتلة
الخارج على امامكم والقادح له القاذع لسيره فاسمعوا حكم الدين ولا تأووا
اليكم كل فار أو مارق لئلا تعدوا راضين عنهم مستنيمين الى غوايتهم فتعطوا
حكمهم وحينئذ تستحقون عقاب الله وعذابه في الدنيا والآخرة . فاسمعوا
وعوا واتقوا الله في سلطانكم والتفوا حول عرشه المكين واعتدلوا معه اعتدالاً

تكتسبون به رضوانه وتكونون أوليائه المستظلين بظلي حمايته في هذه الحياة
ويوم الدين . هذا نداء أخيك فاسمعوه . ودعاؤه فأجيبوه . ونصيحة قلبه .
فلا مـأجـاً لكم سوى امامكم . وروح حياتكم . وموئل وجودكم . ألا وشي
جلالة المولى الأكبر . والسلطان الأ نور . والخليفة الأشهر . ولي الأمر
الشرعي . وأمير المؤمنين صاحب الحق المرعي . أفندينا عبد الحميد خان الثاني
فان لم تكونوا بخلافته وامامته وسلطانته مدعين ومؤمنين فآمتوا واذعنوا
وأيقنوا فان جلائل أعماله . وجمائل أحواله . ومعجزات أمياله . وكرامات
اعتداله . وسر سرائر رجاله وعماله . قررت استحقاقه للعرش الاسلامي العام
دون سواه وهذه عقيدتي التي لا ينصرف عنها فؤادي طرفة عين فادعبروا
واهتبلوا في حبه ونصرته واطلبوا بلسان الولاء الصادق من ربكم ان يديم
تأييده واعلموا أن الآثار الكريمة قررت ان عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه
ونادوا معي بلسان واحد وقولوا قول القائل

يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته . وأيدك بملائكته . وبارك لك فيما
ولاك . ورعاك فيما استرعاك . وجعل ولايتك على أهل الاسلام نعمة .
وعلى أهل العدوان والشرك نقمة . فلقد كانت الولاية اليك أشوق منك
اليها فلا تصلح إلا لك ولا تصلح إلا لها

أنته الخلافة منقادة * تجرّ مع الفخر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له * ولم يك يصلح إلا لها

بل أنت أزين منها لك وما مثلك ومثلها إلا كما قال القائل

واذا الدرّ زان حسن وجوه * كان للدرّ حسن وجهك زينا

وتزيدين أطيب الناس طيبا * إن تمسه أين مثلك أيننا

ويا أيها المؤمنون إذا سئلتهم عن أولئك الفرقة فانكروهم فان الدين ينكرهم وانبذوهم فالاسلام ينبذهم وقولوا بلسان واحد الحمد لله العليّ الماجد . أعطى على رغم العدو الحاسد . فلم يزل الله يريدنا ويتقصهم . ويعزّنا ويذلهم . ويؤيدنا ويخذلهم . ويمحضنا ويمحقهم . حتى بلغ الكتاب أجله . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فهذا هو الأدب الحقيقي الذي يؤهلكم للولاء . ويمكنكم من معرفة أسباب الهناء . خصوصاً إذا علمتم أن أولئك الفرقة المتشردين الطاغين الباغين لا يشعرون بمعاني الحياة ولا يدركون أسرار العمران لانهم لا عيش لهم ولا أصل ولا مرازق ولا مكاسب سوى التطلع لما في أيدي الناس من مال وجاه فانهم لا يدرون كيف لقمته ترد اليهم و

من ليس يدرى كيف لقمته * فهلا كه من حيث لا يدرى
قال جالينوس الحكيم : نطقك ترجمان عقلك وفعلك ترجمان أصلك
فاعلم ما تقول وادر ما تفعل

فخذوا لو تأدّب القوم وراجعوا نفوسهم وعلموا مغازي أقوالهم ومرامي أفعالهم ومغاض أطوارهم ومراض أحوالهم للطموا وجوههم . ولكنهم وبالأسف يفعلون بلا وعي ولا دراية . ويقولون بلا عقل ولا رواية . فمثلهم كمثل الآلات الحافظة للأصوات المسماة في عرف القوم (بالفتوجراف) يحفظون دخائل الدخيل وتنطلق بها ألسنتهم في الانحاء فيسوء صدى أصواتهم وفراقع أهوالهم ويتأذى الادب وتنفر الانسانية وتجمد عواطف الولاء وتهتز أكتاف الدخلاء عجبا وطربا . والبسطاء كلما رأوا سنّ الدخيل يضحك ظنوا أنهم أتوا أمورا خطيرة ذات بال في شرائع الأمم يجب أن تدخل على

المسلمين لتتصلح أحوالهم بها ويستدركون بها أيضاً على سلطة الوازع الأكبر الى غير ذلك من عبارات الخبل المرّ المريع... أليس كذلك...؟

هذا الذي قدمناه يصح أن يكون نموذجاً لكرام النفوس . الحافظين لأداب الناموس . المقيمين على الولاء الخالص يستظهرون به على الخوة المارقين الذين بأوا خسارى سكارى حيارى يتيهون في الأرض هائمين على الوجوه ليس لهم مأوى ولا مشوى غير الفنادق والمراسح . ولوتيهكل الأدب وتمثل صورة لم يكن غير ما ذكرنا في هذا الفصل الذي جاء ميزاناً للاخلاق ومعيّاراً للصفات وقياساً للآداب وقضية منتجة لخيري المعاش والمعاد . اذ لم تترك شاردة من شوارد الحكم ولا بادرة من بودر العظات ولا حادرة من حوادر النفوس . بل جمعنا للأدب وسائله . وصححنا رسائله . وقلنا في مبدء الفصل أن الأدب في هذا ليس الغرض منه علم الأدب المدوّن في كتب القوم فان ذلك معروف ومحصور في قواعد وضعيّة وأمور فنية يرجع بها الى تأديب اللسان . وفهم السنن . ولا تأثير له على النفس البشرية التي جمدت عن الشعور الطيب السالح . ومثل الذين يرففون فتون الأدب ولا تهذب أخلاقهم وتتأدب حواسهم بأدب الحياة الصحيحة مثل العامة السذج الذين لا يدركون معاني الكلام البليغ العالي . وسنفصل آداب الأئمة وآداب ملوكها وأخلاق الرعية وحقوق الرعاة على أهل ولائهم . وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أن موضوع الكتاب عام يستخلص منه الخبير خلاصة تصح أن تكون دستوراً بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم . والغرض الحقيقي من وضعه هو إجماع الألسن الشاذة السالقة للعرش الحميدي المقدس باقتراء واعتداء يمثلان فساد الاخلاق وسوء النوايا . فنسأله تعالى أن يوفقنا ويحفظ فؤادنا

من خطور ما يفارق موضوع كتابنا هذا أنه هو الملهم للصواب . والمهيء
للحكمة والمنطق لفصل الخطاب

﴿ الفصل الأول ﴾

﴿ في الأدب مع الله ﴾

قدمنا أن الأدب من حيث هو فضيلة تنمو مع الفطرة فهي موهوبة
الاستعداد مكتسبة النسبة والحصول بالفعل — أو بالأحرى — أصلية في النفس
ولكنها لا تظهر إلا بالتخلق . وقد أعربنا عن مزايا الأدب الصحيح
وقلنا أنه الحياة الحقيقية الرافعة للنفوس من مزال الأتوار البهيمية والمحقة
لشرف الانسان على سواه من مندرجات جنسه الحيوي . والآن نريد أن
نتكلم على أقسام الأدب ومحاله ومراجعته وواجباته وأحكامه مبتدئين بإيضاح
الأدب مع الحق تعالى الذي هو النموذج الكامل لسلوك أسمى المسالك
وأجهاها وأسلمها

فالأدب مع الله يقضي شعور العبد بأنه مخلوق متعرض لعوارض الحياة
شرها وخيرها . وإذا تم ادعان العبد لربه بالقدرة والعظمة والكمال والجمال
والجلال كان ادعانه داعية لتحلته بحلية الأدب معه في التزام الحدود
واحترام الشعائر المقدسة واتباع الاوامر واجتناب النواهي . بحيث يحرص على
أن لا يوجد إلا حيث أمره الله . ولا يفقد إلا حيث نهاه . ولا ينحصر هذا في
أنواع العبادة والزهادة بل هو عام في كل مرشد الشريعة ومقاصد المصالح
العامّة . فكما أن الله أمر بالصلاة والصيام والحج والزكاة كذلك أمر بحسن المعاملة

والمعاشرة وسلامة الصدور من دواعي التمرد والشذوذ والخروج والتنازع
والنفار والتزاور والنقاطع والتخاشن . ورعاية حقوق الناس من أوجب
مواجب الأدب مع خالقهم ، فانه تعالى غني عن الناس وعبادتهم ، وحقوقه
مبنية على المسامحة أما حقوق العباد فانها مبنية على المشاحجة . خصوصاً وأن
الخرق في عقائد العامة يتسع سريعاً وتترتب عليه أضرار جمة . فان الانسان
الفد لو صرق وشذ لا يضر شذوذه وصروقه بغير نفسه اذا هو سكن رمس
العزلة وانفرد في مضيق جنائته وسجن مخطئته . أما لو أتبع الشذوذ بالاحاد
وأكرر أحكام الوزع وجاهر بالعداء ودعا البسطاء الى اتباعه فقد أحدث في
الأمة أحداثاً ربما أصلت في ضعافها نزعة الفساد فيتسع الخرق على الرافع
فيزول الأدب بسائر أنواعه مع الله ورسوله وامام المسلمين

وحينئذ فالأدب مع الله لا يتم لا صري عصي رسوله وخليفته وافئات
على اجماع الأمة وأحدث في العباد أحداث السوء والفساد . ومن تجرد
عن الأدب مع ربه فهو متمرّد جاحد القلب غير خاشع ولا مدّعن بأنه عبد
مخلوق بل طغى وبنى فيجب قتله وإراحة العباد من شرّه . وقد علمت أن
الأدب متضامن المراجع يفسره قولك — من لم يتأدّب مع الناس فليس متأدّباً
مع امامهم . ومن لم يتأدّب مع الامام فليس متأدّباً مع الرسول الأعظم
صلى الله عليه وسلم . ومن لم يتأدّب مع الرسول فليس متأدّباً مع الله .
ومن لم يتأدّب مع الله وجب قتله أو نفيه أو صلبه . على أن الذنوب التي
يقترفها العبد اذا كانت بينه وبين ربه خاصة فقد نزل بها على ساحة كريم غفور
رحيم يغفر السيئات ويعفو عن الزلات . أما الذنوب التي يقترفها الانسان
بين العباد فانها هي الذنوب التي لا تغفر

(الا اثنان فلا تقربهما أبداً * الشرك بالله والاضرار بالناس)
 روي عن سفيان الثوري رحمه الله أنه نصح أحد أصحابه بقوله : ان
 اقيت الله تعالى كل يوم بسبعين ذنباً فيما بينك وبينه فهو أهون عليك من أن
 تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين عباده . وينافي الأدب والحشمة أن يفعل
 الانسان في السر ما يستحي منه في الجهر . بل ذلك ينافي العقل أيضاً فقد سئل
 لقمان عليه السلام : من العاقل .؟ فقال الذي لا يصنع في السر ما يستحي
 منه في العلانية وان حسن طلب الحاجة نصف العلم والتودد الى الناس نصف
 العقل والتقدير في المعيشة نصف الكسب الخ . وينافي الأدب أيضاً الكذب
 والتعود بالمعادات المستهجنة والبدع المفقوتة والتطاع الى آلاء الناس وجاههم
 والتمني لها بزوالها عنهم والغبية والجهر بالقول السيئ وعدم الوفاء فقد قال الله
 تعالى (انه لا يفلح الكاذبون) وأمرنا بالاستعاذة من الحاسد والحاقد وقال
 (ولا يفتب بضمكم بعضاً يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه .)
 وقال تعالى (ان الله لا يحب الجهر بالسوء من القول) وقال تعالى (يا أيها
 آمنوا أوفوا بالعقود) وقال عليه الصلاة والسلام (كل بدعة ضلالة وكل
 ضلالة في النار) وقال (دع ما يريبك الى ما لا يريبك) وقال رجل لابن
 سيرين اني اغتبتك فاجعلني في حل . فقال لا أحل ما حرم الله بل حكمه
 على الله . وقال حكيم : الصدق عز والكذب ذل . الكذب من ذهاب
 المروءة ومهانة النفس وقلة الحياء . وقال الشاعر

لا يكذب المرء الا من مهنته * وعادة السوء أومن قلة الأدب
 نجيفة الكاب عندي خير رائحة * من كذبة المرء في جد وفي لب
 واذا فقد الانسان عاطفة الأدب وزال عنه الحياء وتقنع بالسوء وقلى

المروءة والحشمة وتسربل بالحنة والفتنة والبدعة واستظهر على ولاء الأمة
بأخلاق فساده ودعا الناس الى جفوة الحقوق وجادلهم في التحجب الى العقوق
فقد سقط من أعين أهل الرأي والعزيمة وباء بالخيبة والعار السرمدي وصاحبه
شعور الخذلان الى أن ينتهي عن غيه وبنيه والأفوه الممقوت الملعون من
الله ورسوله والجنة والناس أجمعين

ولقد يجدر بي في هذا المقام أن أذكر بعض آيات من تاريخ آداب
السلفاء مع ربهم في شدتهم ومحتهم ليتذكر المؤمنون ويعقلوا أن الأدب مع
الله يقضي بلزوم الخشية والخشوع وتبادل الاخلاق المرضية واحترام أوضاع
النواميس المرعية والساتير المقدسة الشرعية . خصوصاً وأن المؤمن الحقيقي
يجب أن يكون ملماً بآداب حياته لأنه لا يخلو حاله من شدة أو رخاء . أو عسر
أو يسار . أو علم وعدل . وسعادة وشقاء . وخلف ووفاء . ونعمة ونقمة .
واجتناء وبلاء . فهو لربه حيث يوجد ويخفيه ويظهره . ولما كان هذا
المقام هو مقام الأدب معه تعالى فلا مانع من أن تأتي على ذكر العظات
المؤثرات لتلتئم جروح الفساد . من أفئدة العباد . وتزول الأضغان والأحقاد .
ويتولد الصلاح المصاحب للشعور الطيب بالواجبات العمومية

ان الساف الصالح من الأنبياء صلوات الله عليهم الى من نحن خلفهم
كانوا لا ينفكون عن مراقبة ربهم وخشيته سرّاً وعلانية والتوكل عليه
والرهبة منه والرغبة فيه لأعنه والأدب معه بحسن العشرة مع معاصريهم
والاخلاص للوكلهم وأمرائهم وخلفائهم . ومع ذلك لم ينبج واحد منهم من
بلاء أو شقاء أو محنة أو اختبار . وكانوا يفرحون في الشدائد ويرونها أسباباً
للفرج الحقيقي لقوله عليه الصلاة والسلام (أفضل أعمال أمتي انتظارها

فرج الله) وقوله (عند تناهي الشدة تكون الفرجة وعند تضايق خلق البلاء
 يكون الرخاء) وقول الشاعر
 ولا تيأسن من فرجة أت تنالها * لعل الذي ترجوه من حيث لا ترجو
 وقوله في المعنى

إذا تضايق أمر فانتظر فرجاً * فأضيق الأمر أدناه إلى الفرغ
 وكانوا رضي الله عنهم أكبر قلباً وأسمى فؤاداً وأعظم أمراً وأكمل
 يقيناً وأكرم نفساً وأوفى عهداً وأمكن اعتقاداً وأرسخ ملكة وأظهر سريرة
 وأزكى روحاً وأعرق نسباً وأشرف حسباً . وإذا سمعوا قولاً للنبي صلى الله
 عليه وسلم أقاموا حدّه والزموا جدّه وأيدوه ونصروه بالعمل والسير الصحيح
 إلى وسائل الرضاء الحقيقي . وإذا ابتلى أحدهم ببلية ظنها أدباله وترفعاً لمقامه
 أو توجيهاً لعناية ربه أو تقديساً لنفسه وتطهيراً حيث قال عليه الصلاة والسلام
 ان الله ادّخر البلاء لأوليائه كما ادّخر الشهادة لأحبابه . ثم ان البلاء في
 الانسان بمنزلة الدباغ يستخرج من الانسان ويصيره الى حالة يمكن الاستفادة
 منه . وقال الجنيد : البلاء سراج العارفين ويقظة المريدين وهلاك الغافلين .
 وروي أن جعفر الصادق كان اذا أصيب يقول : اللهم اجعله أدباً ولا تجعله
 غضباً .

هذا ومن مقتضيات الأدب أن يتكامل الانسان باخلاق كرام الصالحين
 الذين درجوا على سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويتقن من أسرار أسرارهم
 الطيبة السمعة الطاهرة لا يفتدع بخوادع الدنيا وزخرفها ولا ينصرف عن
 جادة الكمال المطلوب بصوارف الخيبة والخدعة الممقوتة . ويجمل بي أن
 أنقل نصيحة نصيح بها الامام على رضي الله عنه الى ابن عباس رضي الله عنهما

حيث قال له :

انك لست بسابق أجلك . ولا بمرزوق ما ليس لك . واعلم بان
الدهر يومان يوم لك ويوم عليك وأن الدنيا دار دول فما كان منها لك اتاك
على ضعفك . وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك . وقال كرم الله وجهه :
لا تعتر بالآمال ولا تحنقر صغار الاعمال فرباً أسد مات من ذبابه ورباً
ملك أحوجه الدهر الى حبابه : وقال : أطردوا واردات الهموم بعزائم الصبر
وحسن اليقين . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كنت ردف النبي صلى
الله عليه وسلم فالتفت اليّ وقال يا غلام . احفظ الله يحفظك . احفظ الله
تجده أمامك . وتعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة . واعلم أن
الخلائق لو اجتمعوا أن يعطوك أمراً منعك الله لم يقدرُوا على ذلك . واعلم
أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب فإذا سألت فاسأل الله . وإذا
استعنت فاستعن بالله . إن مع الصبر يسراً

ما أجمل هذا الأدب وما أكمل هذا الشعور وما أفضل هذه التعليمات
النبوية والصحابية في نفوس الذين يرغبون في أن يكون لهم نصيب من سعادة
وسيادة ونوال . لا سمي مناقب الرجال . ومراقي الآمال والأُمِّال . خصوصاً
إذا زدت عليها هذه الدرر المصونة . والجواهر المكنونة . والجوامع المأمونة
والنفثات النبوية التي تعلم القلوب كيف تتشوف الى أخلاق علام الغيوب وتربي
النفوس على آداب الوجود في ساحة العبودية الخالصة من شوائب أسواء
السوى والغير وتشذب نوافر الغرائز . بأفضل المكارم العزائز . حيث قال
المصطفى صلى الله عليه وسلم (من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم
ووعدهم فلم يخلفهم فقد كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته)

ومن نفائس الأدب الغوالي أن سئل أحد الدهاقين . ما المروءة فيكم ؟ فقال أربع خصال . أولها أن يعتزل الرجل الذنب فإنه إذا كان مذنباً كان ذليلاً ولم تكن له مروءة . والثانية أن يصلح ماله ولا يفسده فإن من أفسد ماله احتاج إلى الناس فلا مروءة له . والثالثة أن يقوم لأهله فيما يحتاجون إليه فإن من احتاج أهله إلى الناس فلا مروءة له . والرابعة أن ينظر إلى ما يوافقه من الطعام والشراب فيأكله ولا يتناول ما لا يوافقه .

والأدب مع الله يدعو النفس لليقظة والتحصن من غوائل الفساد والتحرز من دواعي الشطط والتوقي من كل ما يجعلها متكافئة تخشعاً أو خنوعاً وخضوعاً . لأن الخشية الإلهية إذا حلت قلباً حلت به بحيلة الوفاء والشعور الدائم وجلبته بجلباب الذل والافتقار إليه تعالى وحده والعزة والنفرة عما سواه . وحينئذ يكون القلب منزلاً لا سرار سرائر الحقائق العلية . ومهبطاً لأنوار الكمالات الربية . التي تشرق على الروح من عالم الأهر الأقدس . فيسع التجلي الصمداني وسع إيمان واذعان وإيقان تحقيقاً لمعنى الحديث القدسي (ما وسعني أرضي ولا سمائي . ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) وقد قال ابن معاذ : يا جهول يا غفول لو سمعت لذة صرير قلمه حين أجراه بذكر اسمك في اللوح لم تطرباً . وقال ابن عطاء : نفس المتنفس بالذل والافتقار يخرق كل حجاب بينه وبين العرش . ومن الأدب استماع قوله عليه الصلاة والسلام (أطلبوا المعروف من الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم فالخلق كلهم عيال الله وإن أحب خلقه إليه أحسنهم صنماً إلى عياله وإن الخير كثير وقليل فاعله) مع العمل فإن السماع بلا عمل يفسد ولا يصلح ويزيد في مآثم الضلال فبعد أن تكون على غير علم تكون على علم بحكم الخطيئة المحظورة

ومن الأدب ما أوصى به عبدالله بن الهيثم لولده حيث قال له : يا بني لا تطلب الحوائج من غير أهلها ولا تطلب ما لست مستحقاً فانك ان فعلت ذلك كنت بالحرمان حقيقاً وبالردّ خليئاً . وما روته عائشة رضي الله عنها من أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فاستوصاه فقال عليه الصلاة والسلام لا تغضب فقال زدني فقال لا تغضب وكررها وما كان شيء أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب وان الرجل كان ليكذب عنده الكذبة الواحدة فلا يزال يرى ذلك في وجهه حتى يعلم أنه قد أحدث لله توبة اذا علمت ذلك وفقّهت أن الأدب مع الله لا يتحقق إلا بالأدب مع خلقه أمكنك أن تدرك الحكمة في بسطنا لهذه النقول الشريفة والآثار الكريمة وليست سوى نزوعنا الى ما يبعث في النفوس روح النهضة الصحيحة لتحقيق أمنية الدين الحنيف من أهلنا نحو امامهم وسلطانهم فيلتفتون حول عرشه السامي المسكين ويظهرون لجلالة سيدهم ومولاهم خالص الولاء والوفاء لما علموا من أن رضا الله متوقف على رضائه والأدب مع الامام هو الأدب مع الله

ومن الأدب صلة رحم الانسانية والدين والولاء بمعنى أن الانسان المؤدب مع ربه لا يلقى به أن يقطع أسباب الارتباط العام وحبال الاجتماع البشري بمدى غاياته النفسانية . فان ذلك دليل على الجحود للحقوق والجحود المروق . وقد ورد أن الرحم معلقة تانجي ربها : أي ربّ صل من وصلني واقطع من قطعني . فالصلة خير من القطيعة . والتماذي في العقوق اعتداء مرّ يجرّ الوبال والخبال على مرتكبه . ولا يتسنى للمكاف أن يدعي اليهودية وملوّ فؤاده التمرّد والانانية الكاذبة . بل لا يصدق اذا ادّعى حب الله الذي

لا سبيل إليه إلا بالتقوى والطاعة قال تعالى آمراً لنبه صلى الله عليه وسلم
 (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم والله غفورٌ رحيمٌ)
 أجل ان حب الله من أكمل أصول الدين والصالح ولكن لا بدّ له
 من وسائل مزكية للنفس والسريّة وتلك الوسائل هي التّجيب الى عباد الله
 واكتساب رضا ولاية الأمور بعد الرسول وصحّابته أجمعين . ولا وسيلة لهذا
 الرضوان العمومي سوى الولاء الصادق والوفاء المطابق وسلامة الصدور
 وطهارة الضمير وتقوى الله في عبادته وعدم عصيانه تعالى خصوصاً في حقوق
 عبادته الذين ولاهم الأمور وأسداهم الخلافة والملك وجعلهم أئمة في الأرض
 يحكمون بما أنزل الله ويقيمون حدوده وهو بصير بهم وكفيل لهم وهو
 حسبهم ونعم الوكيل . والّا فدعوى الحب باطلة وقضيتها عقيمة ليست قوية
 بينها قوله :

تعصي الاله وأنت تظهر حبه * هذا لعمرى في القياس بديع
 لو كان حبك صادقاً لأطعته * ان الحب لمن يحب مطيع
 ومن الأدب مع الله الصبر على الشدائد وعدم الضجر في الأمور
 العصية والركون إليه تعالى في حلّ عقدها وزوال شدتها فانه سبحانه رؤوف
 رحيم وقويّ غالب ومع ذلك

إذا يسر الله الأمور تيسرت * ولانت قواها واستقيد عسيرها
 فكم طامع في حاجة لا ينالها * وكم آيس منها أتاه بشيرها
 وكم خائف صار المخوف ومقتر * تحوّل والاحداث يحلو صيرها
 وكم قد رأينا من تكدر عيشة * وأخرى صفابعد اكدار غديرها
 على أن الانسان لو لم يثق بربه ويخلص في دينه ويزكي سيرته بالتصون

من كل ما يخلُّ بأداب اليقين الصالح مع الله فقد أوقع نفسه في مغارم الآثام
وتولته فواعل الآلام . وصارحته نوب الدهر الأليمة وناصبته العداة وقاذفته
بنبالها المضيمة . أما لو وثق بربه واستعان به فقد فاز وبلغ ما يتمناه ووصل إلى
الراحة الحقيقية التي تمكنه من النظر في تقويم أحواله وتطبيق أسياره على
السنن المحبوب لصاحب الملة المطهرة . فلا يدليه اليأس في هوات الانخدال
والاندحار ولا يحمله القنوط على أن يموت وهو حي .

(ليس من مات فاستراح بميت * إنما الميت ميت الأحياء)

بل يكون مملوء القلب بالعزيمة الكاملة والصبر على المكروه ومجانبة قرناء
السوء الذين يبعثون التألم في النفوس من غير ألم ويحرضون على الكفر والعناد
ويحضون على ركوب غارب الشطط والفساد . ولا تجدي الحيلة المتحيل بها
إذا حمَّ أمر الله بما قدر . كما لا ينفع عتاب الدهر إذا تمكن القهر . كذلك
لا تفيد النيمة . إذا ماتت العزيمة . ولا يشفي الدواء . إذا عضل الداء . بل
تفسد الحكمة من غير حكيم ذي رحمة . فأحرى بالمرء أن ينطق عنه الحال
يقول من قال

إلى الله أشكو الأمر في الخلق كله * وليس إلى المخلوق شيء من الأمر
إذا أنا لم أصبر على الدهر كلها * تكرهتُ منه طال عتبي على الدهر
ووسع صدري للأذى كثرة الأذى * وإن كان أحياناً يضيق به صدري
وصيرني يأسي من الناس وأثماً * بحسن صنيع الله من حيث لا أدري
تعودت مسَّ الضرِّ حتى ألفتَه * وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
ولقد ملئت صحف الأولين من السلف الصالح بمعزيات قلوب الصابرين
في أبيات ملئت حكمة وأدباً لو أردنا بسطها لما وسعها صحائف هذا الباب

الوجيز . وقد اشتهر من عظائمهم كثير كقولهم
 اذا ضاق صدري بالأُمور تفرجت * لعلمي بان الأمر ليس الى الخلق
 ثم والرضا عن الله في كل الحالات من أزم الواجبات وأدعائها الى
 اكتساب رضائه تعالى الذي هو الغاية المقصودة من الاله المعبود وما أجل
 قول بعضهم في هذا الموضوع

رضيت بالله ان يعطي شكرت وإن * يمنع قنمت وكان الصبر من عددي
 ومن عجيب أمور هذا الباب أن الأدب مع الله اذا كمل في امرئ
 توفرت لديه مشيرات الرضاء عن ربه والحب الحقيقي الالهي وهذا الحب
 يكون غالباً مدعاة لفتح اغلاق الملكوت وسبباً في نوال العبد جزيل الآلاء
 ووافر المنح والعطاء . حتى أنه يكشف بأسرار الحق في الخلق ويطلمعه الله
 على آيات قدرته الباهرة . ومعاني حكمته القاهرة . ويمكنه من الصولة
 والجلولة في العوالم الروحانية فتصدر عنه خوارق العادات . وتتأصل فيه
 عوامل الصراعات والدعوات المجابات . والسبب في هذه الحالة يؤثر النزلة
 عن الناس والافراد كما قال بعضهم متواجداً في معنى الأخذ عن الله والسمع
 عنه والاستمداد منه

سمعت الله في سري يقول * أنا في الملك وحدي لا أزول
 وحيث الكل مني لا قبيح * وقبح القبيح من حيثي جميل
 ومما قالوه في معنى الوحدة والنزلة والافراد والجلولة
 أنست بوحدتي ورضيت نفسي * لنفسي من أخلائي جليسا
 وعيبي شاغل عن عيب غيري * وحسبي خالتي وكفى أنيسا
 ولولا خشية الملل لأطلنا في هذا الفصل وبسطنا ما لدينا من لوازم

الأدب في الحق ولكن حسبنا ما قدمناه اذا وعاد فؤاد القارئ وقدّره حق قدره . اذا ما علينا من النصيحة أبدينا لا نبتغي عليه أجراً على المرء أن يسعى لما فيه نفعه * وليس عليه أن يساعد الدهر فان نال بالسعي المني تم قصده * وان خاب المقدور كان له المذر

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴾

اعلم أنّ الأدب مع الرسول الأظهر صلى الله عليه وسلم هو بعينه الأدب مع مرسله القديم جلّ وعلا . بيد أن آداب الرسالة تستدعي شعوراً كريماً يلائم حال صاحبها . فان الرسل الكرام عليهم السلام لهم في أممهم عقائد شتى . فمنهم من جعلته أمته الهاً فكفرت به وبربه . ومنهم من افترى عليه رهط الكذب على سبيل المدح والاطراء . ومنهم من عكف قومه على عبادة هيكل خلقوه له وادعوا أنه ليس من البشر الى آخر تلك العقائد بل الدوائد الشاذة التي ينفر منها الأدب الحقيقي مع الرسول الكريم . ولا نقصد بذلك خطأ من مقام نبيّ منهم صلوات الله عليهم أجمعين . فانهم كلهم رسل الله ولا نفرق بين أحد منهم أبداً بوجه من الوجوه . فلندع الكلام الآن على ما تذرّع به بعض الأقوام من العقائد الشواذ ولنبرّج على مقصدنا الحقيقي من بيان الأدب مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فنقول

محمد صلى الله عليه وسلم هو الرسول الإلهي الذي بلغنا عن ربه رسالته بإمانة وتوخي المصلحة العامة ودعا الناس جميعاً الى اعتناق دعايته التويمة .

وهدايته الكريمة . فأجاب السعيد وشذ الشقي فأعرض ونآى بجانبه عن الهدى الذي استحب العمى عليه . وحيث إن هذا الرسول الأمين الصادق الوعد بلغنا الرسالة بامانة وفطنة ورزانة وحسن عقل وأدب فينبغي أن نكون له كذلك محيين بامانة وروية وعقل وأدب . لا أننا نفتات على شريعته التي أوصى الله بها أنبياءه عليهم السلام . ومعنى الاجابة بالامانة هو أن نقوم بالشعائر المقدسة حق القيام ونقيم آداب دينه القويم وحدوده الشرعية حتى يستقر العدل في نفوس الناس وتسري الاريحية في جميعها

وهذا المعنى اذا قننا به وقام بقلوبنا يحفظ لنا سبل الأخلاق من قتاد الفساد والحماقة والعلل والخلل فتكمل بالكمال المحمدي الطاهر من غير تعب ولا جهاد . فالأدب معه عليه الصلاة والسلام هو التصديق الصحيح والاذعان التام بكل ما جاء به والعمل على قدر الطاقة البشرية (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) وقد حكى أدبه وأخلاقه في القرآن الحكيم قوله (وانك لعلی خلق عظیم) وقوله (وما أنا من المتكفين) فاستمع أقواله صلى الله عليه وسلم والاذعان بها والعمل بما ارشده الحكمة على قدر الامكان هو الأدب معه وللأدب معه صلى الله عليه وسلم أحكام وشروط . منها أن الانسان اذا تلى عنه حديثاً من أحايثه أو آية من القرآن العظيم يخشع قلبه ويتأدب فؤاده ويصمت لسانه وتهذب حواسه . والأدب الذي من هذا القبيل لا يخرجنا عن موضوع الادب الجوهرى في الاحكام والنظام العام اذ هذا من أركان الاتباع الكامل . لان الانسان اذا لم يطع ولي أمره مثلاً وأمير المؤمنين فقد استخف به وحقره . وبهذا الاستخفاف والتحقير استخف وحقر من ولّاه وأمره جلّ وعلا . فضلاً عن قلة الادب مع الرسول صلى

الله عليه وسلم

قرأنا صحف تاريخ الاسلام والمسلمين فلم نجد فيه الا أن معاصري
الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا معه أتبع من الظل لشخصه تبعية بادب
واحترام وتقيي لظلال رحمته العامة . ولم يرو لنا راو من رواة التاريخ أن
مسلماً عاصر النبي صلى الله عليه وسلم وخرج عليه وثرثر في ملاء من أملاء
المسلمين . بل كان الادب رائد قلوبهم وصاحب السلطان على نفوسهم
ورداءهم الشريف الذي ارتدوه والتحفوا به شعاراً بين ظهراي الأمم جمعاء .
ولقد كان الذي يشعر بشذوذ في خلاله وآدابه لا يأوى الى جموع
العرب بل ينأى خشية أن يهان أو يذل . لا اعتقادهم أن الادب مع الرسول أدب
مع الله . والحياء من الاول صلى الله عليه وسلم حياء وخشية من جلال الله
عز وجل . حتى أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا سراة الناس
وكبارهم حسبا ونسبا وشرفاً وعشيرة واثراء ومع ذلك كان خضوعهم وانصياعهم
للرسول كمدرسة أدب وتخلق للأمة وأخلاق عامتها . فاذا جاء أحد الى
حضرة الرسول ووجد بين يديه أبا بكر الصديق مثلاً وهو خاشع وله من
السمعة العالية والصيت الطائر ما يستصغر نفس الزائر في اعتبار السائر . أفلا
يكون هذا الأدب الصحابي سبباً في تحلي كثير من عامة الناس وأواسطها
بالادب الصحيح والحب الخالص .؟ . وقس على أبي بكر غيره من الصحابة
كعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الخلفاء الراشدين

ولو نظرنا في معنى الخلافة والاستخلاف تحقق جيداً أن الخليفة يمثل
النبي صلى الله عليه وسلم يسائر حقوقه وآدابه وكلماته وأحواله وإخوانه وأمتة
وصولاته وسلطته ومركزه . وفي هذا من السر في حياة الشرعة الناصخة

لسواها ما لا يخفى على بصير خبير . فان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستخلف عنه أئمة المسلمين الا ليكونوا بدله في أمته قوَّاماً عليها بالقسط والعدل لهم ماله وعليهم ما عليه ولو في أخص واجباته الرسالية التي منها ارتقاء المنبر والقاء أسرار التنزيل بالوعظة الحسنة على الأمة وتطبيق حوادث المعسر على آي القرآن الكريم . فاخلفوا نواب عن الحضرة المحمدية يزعمون أحكام الدين على الناس بساطة الرسالة الالهية التي اختص الله بها النبي محمداً صلى الله عليه وسلم . فيجب على المسلمين أن يوقروهم ويعززوهم وينصروهم ويتأدبوا معهم ويذكروا سمعهم ويقدموا السرائر في عقيدتهم معهم لتتحكم عرى الارتباط المحمود والصلة لرحم النبوة الكريمة

أنظر في شأن المسلمين أبان خلافة أبي بكر رضي الله عنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم فان الناس كانوا قد جزعوا جزعاً شديداً وكادوا يرجعون عن الاسلام لولا أن ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وألهم الصديق أن يرقى المنبر ويتلو آية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم الخ) فثاب الناس الى رشدكم وتذكروا خطأكم وكانهم لم يقرأوا هذه الآية ولم تقرأ عليهم . وهذه فائدة كبرى من فوائد الخلافة التي هي ركن الدين الادعم وعماده المشيدة بيد العناية والأيد كما سيتضح لك ذلك بعد

ولو لم تكن الخلافة من أوليات الاركان الموصى بها من النبي صلى الله عليه وسلم لاندرس الاسلام بموته عليه الصلاة والسلام ولكن الله لا رادته بقاء دينه العزيز وفق نبيه الى الاستخلاف الحقيقي تخلقاً بخلق ربه في جعله آدم خليفة في الارض يزرع أحكام الحياة البشرية على نوااميس الفطرة التي

طر الله الناس عليها

ولقد بلغ الادب الصحابي مبلغ الحب والعشق له صلى الله عليه وسلم حتى تفاضل في اكتسابه الصحابة أجمعون وتنافسوا في مضماره وتسايقوا على محبب العزائم في ميدانه في حياته صلى الله عليه وسلم وبعده . وما أجل من أدب يستحيل حباً وصدقاً وإخلاصاً . فان الادب الذي يترقى بصاحبه الى اكتساب عاطفة الحب والحنان والاشفاق لمهو الادب الخليقي بالذكري والاعتبار . وقد ذكرني هذا حديثاً صحابياً في هذا المعنى ألمع اليه المحدثون في كتبهم الفخيمة . وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فضل أبا بكر على الصحابة أجمعين حاولوا معرفة السبب الذي به فضلهم رضوان الله عليهم . فلم يروه يزيد عنهم في خشوع أو خضوع أو أدب مع الله والرسول فحدثتهم نفوسهم بهذا الامر وتمالؤا في أملائهم له وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي به فضلهم أبو بكر رضي الله عنه . فلم يسمعوا من فمه الشريف غير قوله عليه الصلاة والسلام (ما فضلكم أبو بكر لا بصوم ولا بصلاة ولا بجميع ولا بزكاة وإنما فضلكم بشيء وقر في صدره) يرضى الى استحالة الادب حباً خالصاً وعشقاً كاملاً . فأذن الصحابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم ولم يراجعوه احتراماً لمكانته العليا في نفوسهم واعتقاداً لصدقه الذي فطر عليه وإنما اشتغلوا بالبحث والاستقراء حتى مات الرسول صلى الله عليه وسلم وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً بموته ولم يندسوا ذلك وقضى أبو بكر أيامه خليفة عليهم وهم مضمرون استطلاع ذلك الشيء الذي وقر في صدر الصديق وبه فضله الى أن مات وترك زوجته رضي الله عنها . فبادر اليها أحدهم وخطبها من ذويها فاجابوه ولما دخل عليها قال لها . اعلمي أيتها السيدة الكريمة أنني

ما تزوجتك لحسب أو نسب أو مال وإنما تزوجتك لتدليني عن ماذا كان يفعل أبو بكر في بيته . فقالت له : كان يصلي كما تصلون ويصوم كما تصومون ويؤتي كفاك كما تؤتي كفاك ويحج كما تحجون ولم يزد عليكم شيئاً غير أنه كان في بعض أحيائه يجلس مخبئاً مطرقاً برأسه كأنما يفكر في أمور غامضة ثم بعد اطراقة الطويل يتنفس الصعداء ويقول بزفرة (واشوقاه الى محمد) فتذكر الصحابي عاطفة الحب واستشرف على معنى الفضيلة الراسخة في نفس الصديق رضي الله عنه فانطلق لسانه قائلاً : بهذا فضلنا أبو بكر مكرراً ذلك حتى أعلم الصحابة بالحال ولكنهم لا اعتقادهم أن عملاً كهذا يحتاج لفهم قواعد وأصول ربما كان النبي أسرها لأبي بكر وعلمه إياها لم يفكروا فيه . بيد أنهم تفانوا في حبه صلى الله عليه وسلم تفانياً أدناهم الى حضرة الصديق منهم وبعث فيهم شعور حكمة الادب مع الله والناس فقتنعوا بشطف العيش وخشونة الحياة ولم يقلعوا عن عوائد البدوية مع غزير غنائمهم ووفرة أنفالهم رضي الله عنهم أجمعين

واذا علم القارئ أن الأدب مع الله تعالى لا ريب في وجوبه على العباد أجمعين لما له عز وجل من الحجة البالغة والبرهان الساطع على كمال اقتداره وعظمة سلطانه ورهبة جلاله فلا يعزب عنه أن يعلم أن الأدب مع الرسول كذلك واجب لأن الآيات القرآنية تصرح بذلك وترشد اليه ارشاداً لا يحتمل التأويل ولا التخريج قال تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم (ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) فإذا كانت مبايعته صلى الله عليه وسلم هي مبايعة الله ومعاهدة الله هي معاودة الله وموافقته كذلك أفلا يكون الأدب معه أدباً مع الله ؟

ليس الأدب أخطر شأناً على النفس من المبايعة التي هي تسليم الأمر والنفس والمال ابتغاء الرضاء واتحاداً على الجهاد في سبيل الله فكيف لا يكون التأدب معه صلى الله عليه وسلم من أوجب الواجبات وأسمائها وأكملها وأسلمها سبيلاً ؟.

هذا وكما أن الله استتاب عنه النبي صلى الله عليه وسلم في عقد المبايعة مع عباده والتحالف على الجهاد في سبيله كذلك النبي استتاب عنه الله في النصر على الأعداء والظفر بهم في الحرب . فكان صلى الله عليه وسلم إذا حارب رأى رؤس أعدائه تتطاير وجشهم تترامى على الغبراء . ولما استعظم الأمر في نفسه سمع الوحي يناجيه بآية (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وإذا أحب الجهاد وتشوّفت نفسه الشريفة الى الاستظهار على أعداء دين ربه ووفق لذلك رأى من مدهشات الأعجاز ما يسجده لله شكراً فيسمع النداء من ربه عن لسان وحيه ناطقاً بآية (فلم تقلوهم ولكن الله قلهم) فانظر نتيجة الأدب والوحدة واليقين والتسليم تعجب من عجائب أسرار الحب الخسيس بياهل العناية والاخلاص جعلنا الله من المعبودين في رصرتهم ووفقنا للعمل بما يقربنا من حظائرهم يوم الفرع الأكبر

ولا ريب في أن الطاعة التامة هي أدب وزيادة إذ لا يلزم من الأدب الطاعة كما يلزم الأدب في الطاعة . ومع ذلك قرّر القرآن الكريم بأن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله . ويتدرج في معنى الرسول كل نائب عنه أو خليفة أو ولي أمر من أئمة المسلمين قال تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) ولو أضفنا الى هذه العظات السماوية المقدسة أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الضعة ودمائة الأخلاق الكريمة

وشهامة القلب والتبري من الحول والقوة والتوكل الحقيقي والزهادة الغاية
والاكتفاء بكفاف العيش مع القدرة على أسنى مظاهر النعيم والرفاهية
لازداد بنا الإعجاب والاندھاش من هذا الكمال التام الذي يحمل الضمائر
على التضافر في المصلحة الحقيقية ولو حملها ذلك ما أوجب فناءها ابتغاء مرضاة
الله ورسوله الذي نحدثك أيها القارئ ببعض شيمه العالية وصفاته الكريمة
السامية ونرجو أن تمها وتحرص على صراميتها ومغازيها لملك تفوز مع
الفائزين .

وحسبك أن تفهم معنى مآليه رمزنا بهذه الدلائل المتينة والاستنتاجات
القوية وتعلم أن حقوق الخلافة هي بيمينها حقوق النبوة لا تنقص عنها غير
الخصائص الالهية التي تميز اسم الخليفة عن اسم النبي . فلا جائز أن يقال إن
النبي يجب الأدب معه والخليفة لا يجب الأدب معه لامتناع انفكاك
ما ارتبط به وورثه الخليفة عن نبيه . كما لا جائز أن يقال بوجوب الأدب مع الله
وامتناع وجوبه مع الرسول لامتناع انحلال ما ارتبط به أيضاً في عقود التنزيل
وعقود الرسالة الكريمة بل الواجب أن يقال . ان الأدب مع الله ضروري
ومع رسوله واجب مقدس ومع نائب الرسول وهو الخليفة وامام المسلمين
كذلك . لأن الله منح الرسول سلطة الوجود الالهي التي تمثل هيئته تعالى
وعظمة سلطانه المحترم . والنبي صلى الله عليه وسلم كذلك خوّل لنائبه كل
حقوقه التي كانت له على أمته من الطاعة والصدع بالامر واجتناب النهي
فله كذلك ما للنبي من الأدب والاحترام

ولما كان الأدب مع النبي واسع الابواب ضافي الفصول كثير
الدوال واضح المعنى والحكمة اكتفينا ببسط ما تقدم معقدين أنه كافٍ

في بيان حاجة موضوع الكتاب من الأدب النبوي الذي هو المدعاة الكبرى والمثار الأعظم لنعمة الولاء العام لخليفة الاسلام . ولا غرابة في أن النفوس المتأدبة بأدب الدين المستكملة لكمالات الوفاء والشهامة يكفيها القليل من القول الدال على المعاني العظيمة . أما إذا تعرضنا لتشذيب النفوس المتمردة فلا تكفيها المجلدات لبسط الوعيد الذي يلقاه من لم يتأدب بدينه مع امامه ورسوله وربه . فان الشرائع جمعاء قضت بان فقيد آداب الولاء المتمرد على الحقوق المعتدي على عقائد الأئمة المنفري بالمسوء والفساد يجب أن يعذب عذاباً أليماً ويلقى هوأناً مضياً . حتى أن القوانين الوضعية تتحد مع الشرائع الالهية في ذلك حيث حرمت الافتئات على سلطة الوازع وقررت للمفتات عقاباً صارماً تضطرب من ذكره النفوس وترتعد الفرائص وترتجف الافئدة وتلتحف بالوجفة الشديدة والقلق المريع . ولكن أبى الله في هذا العصر أن يسود هذا الدستور الكابح لجامح النفوس الشريرة الكاسر لسوراتها الحافظ لكيان الآداب العمرانية . كأن الناس في هذه الأيام لم يشعروا بأن كل فساد ترتب على سوء تربية الافراد يعم ضرره ويمتنع خيره . مع أنهم في ظروفهم الحاضرة أحوج من سواهم بكثير الى التربية الحققة الصحيحة وتعهد الاخلاق وتنقيتها من أعلاق الفساد والشذوذ توقيهاً لما يترتب على معيومية فسادها من تعدر الرجعة ولو بعد حين آه

فسد الزمان فليس يأمن ظلمه * أهل النهى وبنوه منه أظلم
نبذوا الوفاء مع الحياء وراءهم * فيكون حيث يكون هذا منهم
فلا أدري لماذا لم يحتفظ أبناء هذا العصر على آداب حياتهم وفضائل وجودهم . وكيف هانت عليهم تضحية مجدهم وقضاء أعمارهم بين الرذائل

وعداوة الفضائل بالخروج على جلالة سلطانهم الانغم وامامهم الاكرم .
 اذا صرّ هذا المرين رذائل * فهل ثمّ عمر للفضائل آتي
 فيا عجباً من غفلة في نباهة * وما هي الا سكرة الشبهات

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ في الأدب مع الخليفة العام ﴾

قدّمنا أن موضوع هذا الكتاب هو الحثّ على الفضيلة من حيث هي فضيلة . وقد أبنا فيما قدمناه معنى الأدب من حيث هو . وشرحنا وجوب الأدب مع الله تعالى ومع الرسول صلى الله عليه وسلم . والآب شرح في هذا الفصل آداب الولاء . الحقيقي وواجبات الاسترعاء . المرعي الحقوق في كل أمة تلقاء امامها وسلطانها ووليّ أمرها . غير متعرّضين الآن لامر الخلافة واستحقاقها اذ ذلك ليس في الواقع مقصودنا في وضع هذا الكتاب وان كنا سنأتي بنبرة تتعلق بذلك في الابواب والفصول الآتية (فمن هو الخليفة والامام وما هي الخلافة والامامة .)

الخليفة الامام هو العدل المسلم الرشيد الذي استحق الخلافة إما بنص من سالفه أو باجماع من عقلاء الأمة . فتي أحرز الشروط الستة المدونة في كتب الشريعة المطهرة (وسنأتي عليها بعد) كان هو الخليفة والامام وأصبح أمره حكماً شرعياً مقدساً لا يجوز التخلي عنه بأيّ وجه من الوجوه خصوصاً اذا روعي في الامر صالح الأمة الذي يديره هو وحده أو بإرشاد الثقات الذين

انتقامهم لمشورته في مهام الأمور

والخلافة والامامة لفظتان متباينتان في المبنى متحدتان في المعنى تشقان
عن أركان أربعة لا تتحقق بدونهما . وتلك الأركان هي المستخلف (بكسر اللام)
والمستخلف (بفتحها) والاستخلاف الذي هو الفعل الحاصل بينهما . والخلافة التي
هي الصفة المكتسبة للخليفة . أما المستخلف بكسر اللام فهو النبي صلى الله
عليه وسلم أو من في حكمه كالخلفاء عنه أو الاجماع الأمي . والمستخلف بفتحها
فهو الذي ثبت له الاستخلاف بشروطه الشرعية ونودي باسمه خليفة وذكر
الخطباء على المنابر اسمه باعتبار كونه اماماً عاماً لسائر أئمة المسلمين فخمه بعد
ذلك حكم النبي صلى الله عليه وسلم في سائر أحواله وأطواره وآدابه والأدب
معه والحقوق التي له والتي عليه

ومن أهم أركان الأدب مع الخليفة طاعته وعدم الخروج عليه لأمر من
الأمور . إذ لم يبح الدين أن المسلمين يخرجون على إمامهم وسلطانهم إلا في
أحوال مخصوصة بينها الشيخ اللقاني في جوهره التوحيد حيث قال

وواجب نصب امام عدل * بالشرع فاعلم لا يحكم العقل
وليس ركنًا يعقّد في الدين * فلا تزغ عن أمره المبين
إلا بكفر فابذّن عهده * فالله يكافينا إذاه وحده
بغير هذا لا يباح صرفه * وليس يعزل ان أزيل وصفه

فيعلم من هذا أن الامام واجب الطاعة ولا يخرج عليه مسلم إلا إذا
رأى منه الكفر فلا بأس بنبذ عهده . أما إذا كان مقيمًا على الاسلام ولو كان
فاسقًا لا يجوز الخروج عليه . لان الخروج عليه ليس بسهل النتيجة لما يترتب
عليه من اضطراب أحوال الأمة واختلاف الرأي فيها خصوصاً إذا أعقب

الخروج عزله فتقع البلاد والعباد في شقاء عظيم ووبال مضيم ربما أفضيا الى دخول الاعداء واستضعافهم للمسلمين . فالتسبب في ذلك جان على دينه وعرضه وأمته ونفسه . حتي أن الامام اذا كان ظالماً غير عادل فدينه الاسلام وهو أول دين الانسلاق ويشذب النفوس ويلين القلوب ويعطفها يوماً ما الى العدل والرحمة بعباد الله فهو أولى وأحق وأوجب رعاية وولاية من الكافر العادل . فلا تنظر لفتوي (هلاكو خان) التي حدثك بها التاريخ فانها بنت فرية مختلقة ينكرها الدين والأدب كما سيتضح لك ذلك بعد .

على هذا بنى الأولون العقلاء أمورهم وثبتوا قلوبهم واسترعوا أئمتهم وخلفاءهم ورضعوا السلاطينهم وولائهم . ولم يرد في كتب الدين أو التاريخ شرط يعين الصبغة للامام والسلالة بمعنى أن يكون قرشياً مثلاً . فان الخلافة حق الله في عباده كافة لا في جنس دون جنس أو عشيرة دون أخرى

وحيث الامر كما تقدم فطاعة الخليفة ألزم رعاية لمصلحة الامة والدين . والخروج عليه بلا كفر منه كفر من الخارج لا فتاته على الشريعة المطهرة واغرائه بأمن المسلمين وراحتهم واحداثه في دين الله ما هو يراء منه ولأن الخروج ضرب من ضروب الانكار للمعلوم من الدين بالضرورة وجاحد للمعلوم بالضرورة كفر بالاجماع تجب مقاتلته واستئصال شأفته وفتنه على أن الادب مع الخليفة أياً كان لا يكلف النفوس الطيبة شيئاً لان الأدب غريزة من غرائز الاخيار . وان نافر فطرة الاشرار . اذ لا يعقل من عاقل أنه يرى الامة بأسرها مجمعة على أن جلالة مولانا أمير المؤمنين الخليفة العام السلطان عبد الحميد هو الامام الاسلامي ثم تحدثه نفسه بالخروج والشطط والتفريق بين المؤمنين

أجل ان الافتتان ليس بعيداً عن النفوس الشريرة والوجود التعليلة
الأدب والحياء ولكن نحن الآن نخطب أهل الحبى الذين يعقلون ما نقول
ويعون ما نرمي اليه . أما أولئك الزعانف فتد طبع الله على قلوبهم وصرهم
عن الهدى . فبأؤا بغضب منه سرمداً . ولا يليق بنا أن نلثنت الى ثرتهم
وبهتانهم وهديانهم بل يجب أن نقلوهم ونحرّض عليهم أهل العزائم ونغري بهم
كل ذي شعور صحيح غير معتل ببال مدخولة عليه عن دخيل فرق جمعنا
وشتت شملنا . ولو تحققوا من سبب ذلك لوقفوا على سره . لانب خير
المسلمين في الوفاق والوثام . لا في الثثرة والانقسام . فان أعظم خطر على
حياة الجامعة الحقيقية هو التفرق والدعوة اليه . خصوصاً من زعانف لا وفاء
عندهم لان أعداءنا حينما يرون زعناً منهم يثرثر ويتشدق بالاصلاح وهو بريء
منه يهولون ويرجفون . ويزعمون أن ذلك الثثار من ذوي المقامات الكبار
وهو في الواقع دعي فاجر فتخدع ضمائر البسطاء وربما غاب الشقاء على
بعضهم فاتبعوا خطوات الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدورهم ويحملهم
على العقوق

هذا وقد قرّر واضعو الشرائع النظامية أن سلطان الأمة ومليكها هو
الروح العامل بالجوارح فاذا اعتدى عليه معتد اضطرب الجسم جميعه
وتمكن منه أمراض تفتقر الى علاج كبير . فالأمة مكلفة اذاً بالمحافظة
على روح حياتها العمرانية أكثر من محافظتها على أرواح الافراد الجزئية .
وقد قدّروا عقاباً صارماً للخارجين المارقين الذين يخرجون على تلك الروح
المستجبة بأسرار وجودها في مستودع الحقوق العامة المتبادلة . وحياة الأمم
بحياة عرش الوزع الأعلى فيها والسلطنة لا قوام لها الا بالسلطان الذي هو

العامل الممنوح القدرة والرغبة والجلال . وطبيعة النظام تقتضي الحياء وعدم التحرش بالسلطة والأفتيات عليها . والفرد الجامد الذي لا حياء عنده يعتبر من الأدواء المعدية التي يجب استئصال شأفتها توقياً لحياة الأمة . بل وجوده كالطاعون والوباء وكل أمة لم تطهر أملاء حياتها وعمرانها من مثل هؤلاء الجامدين الذين لا حياء عندهم ولا احترام لشريعة من الشرائع أو لسلطة الوازع فهي معرضة لسوء السمعة وفساد التربية وعدم النهوض للحفيظة والدفاع عن الحقوق المتبادلة بينها وبين سواها من الأمم العاملة على حياتها وتقديس سمعتها . ولا دواء من هذه الأدواء غير ماقرره الحكماء المقتنون للقوانين الحياتية . وهو بسط شريعة الأدب الشعبي القائم على كل نفس من نفوس الأفراد بما كسبت . والأدب الشعبي هو الوسيلة العظمى لاستبقاء مجد الشعب واجتلاب الفضائل وترسيخها في النفوس حتى تصير ملكة كاملة وينحصر الأدب الشعبي في شعور الافراد بسلطة الوازع عليهم وهيمنتته على تصرفاتهم العمومية والشخصية . وشعور الوازع بان له في نفوس رعيته مكانة احترام تؤهلهم لتلقي أسباب نعمه ورحمته بهم واشفاقه عليهم وعدم العسف فيهم والجور على حقوقهم . وهذان الشعوران الملتقيان في سبيل واحد هو الارتباط الحقيقي يتبادلان بين كل كبير وصغير في الشعب . فيعرف الصغير واجباته نحو الكبير في قومه ويتعلم من أحوال آبائه الذين احتضنوه وربّوه ما يجب عليه من الأدب والتوقير والاحترام لمن هو أكبر منه سنّاً وأخطر شأنّاً وأسمى علماً وأدباً وخلقاً . ويعرف الكبير كذلك آدابه وما هو مكلف به من الحرص على عواطف الصغير فلا يخاشنه أو ينفره منه أو يشتد معه ويفلظ في معاملته ويرهبه دائماً بالقسوة والفظاظة . فان هذه

الاخلاق وحشية لاتليق بالانسان المتعلم الذي هو بمثابة مدرسة علمية لمن هو أقل منه علماً وفضلاً وسناً واختباراً . واذا تبوّدل هذا الأدب الشعبي بين أفراد الشعب الواحد فبشرهم بالفوز الدائم والوقاية السرمديّة

هذا من جهة الحالة المدنية المقرّرة في الشرائع الوضعيّة . وربما توهم صرّجف مغرور أنّنا لا نستند في كتابنا هذا على أقوال رجال الحضارة وفلاسفة العمران المصري . فجئنا بمضامين أقوالهم في الآداب الشعبيّة هنا ليتعلم الفاسدون أنّ كل بني البشر مجمعون على أنّ كل مارقٍ من اجماع قومه لا يعول عليه ولا يصح الاختلاط به أو معاملته بل يجب الاغضاء عنه بالمرّة حتى يتأدّب ويؤوب الى صوابه ورشده وأدب الأمة . فليعتبر القررة المتشاكسون قاتلهم الله أنّي يوجدون

ولما كان موضوعنا هو الأدب مع الخليفة الذي هو الملك والسلطان العام رأينا أن نثبت للمطالع فظاعة جريمة الخروج وعدم التحسب في الكلام ضدّ الملك بالاموال والافعال الجارحة للسمعة والمحرضة على الثورة والفساد بين الناس بما هو مدوّن في أصول شرائع العالم ونواميسه الوضعيّة حتى يتبين أنّنا نقصد الاصلاح العمومي للامة في شكل رعاية لآدابها مع مليكها وسلطانها . فاليك ترجمة ما قاله الفيلسوف مونتيكيو الشهير مؤلف كتاب (أصول الشرائع والنواميس) في هذا الباب تحت الفصل الثاني عشر والثالث عشر من الكتاب الثاني عشر في الشرائع التي تحدث عنها الحرية السياسيّة من حيث ارتباطها بشؤون الاهالي قال :

- في التصب في الكلام -

أنه لا شيء يصير ارتكاب الجريمة ضد الملك فعلاً صادراً عن سبق قصد وتعمد أكثر من عدم التحسب في الكلام فإنه من المواضع القابلة للتأويل . إنما يوجد فرق بين عدم التحسب في القول وبين الخباثة فيه يكاد أن لا يميز . لذلك فالشرعية لا تجيز جعل الكلام أساساً يترتب عليه الحكم على قائله بالاعدام ان لم تعين الالفاظ التي تستلزم توقيع العقوبة على قائلها .

أما الالفاظ فلا ينشأ عنها جرم الجريمة اذ أن معانيها تلبث راسخة في التصور ولا تفيد غالباً معنى قائماً بذاته . وإنما يختلف هذا المعنى بحسب رنة الصوت واللهجة . وقد يتأتى غالباً بأن الانسان اذا كرر ذات الالفاظ فانها لا تفيد ذات المعنى لان المعنى ينحصر فيما يكون للالفاظ من الارتباط بمواضع أخرى . ثم ان السكوت في بعض الاحيان يفيد مالا يفيد الخطب المطولة ومن ثم فلا شيء يقبل الالتباس والاشتباه مثل الكلام فكيف يجوز اذاً أن يستنتج منه ارتكاب جريمة ضد الملك .؟ — ففي كل جهة سرت فيها هذه الشريعة فقدت منها الحرية واندثر أثرها

ان المنشور الذي أصدرته المرحومة قيصرية الروس ضد عائلة — « اوجوروجي » قد تضمن الحكم باعدام أحد أمراء هذه العائلة لانه تفوه بكلام هدد به شخص الملكة وباعدام أمير آخر لانه ندّد في بعض الانظمة التي وضعتها لملكها ولانه أهان شخصها بالفاظ مخلة بالأدب . ولست أقصد بما تقدم التشديد في الفيظ الذي يتولد عند أمراء

البلاد ضد من يقصدون هتك حرمتهم ومس كرامتهم . وانما أعني بأنه قد يمكن تعديل الاستبداد بقصاص المذنبين بعقوبة تأديبية لأن ذلك أوسر اتهامهم بارتكاب جريمة ضد الملك لما في هذا الاتهام من جسامه الخوف حتى على الميراثين أيضاً

ان الأقوال ليست مرتبطة دائماً بالأفعال كما يتضح ذلك لكل ناقد بصير . فالتهمة الباطلة على أفعال ظاهرة لا يصعب تحقيقها والاعتدال بالاعتدال بالعمل فانها تأخذ قوة ذلك العمل . مثال ذلك — ان الرجل الذي ياتي من محل عمومي ليحض فيه الناس على الثورة فانه يعد مرتكباً للجريمة ضد الملك لما أت أقواله مقرونة بفعل ومشاركة به . فتوقيع العقوبة في هذه الحالة لا يكون على الاقوال وانما على فعل يستخدم الاقوال لاعتداله . فالأقوال لا تعد جناية إلا متى جهزت فعل الجناية أو اقترنت أو اشتركت به . وقد يختلف النظام لو وصفت الاقوال بوصف جناية بدلاً عن وصفها بدلائل على الجناية .

ان الأمبراطورة « تيودس » و « اركارديوس » و « هونوريوس » قد كتبوا الى « روفين » قائد الحرس المشرقي بما يأتي

« اذا فاه أحد بما لا يليق ضد ذاتنا أو ضد حكومتنا فلا نريد أن »

« نناقبه على ذلك فان كان كلامه عن طيش يلزم الازدراء به وان كان عن »

« جنون فيجب أن يرثي لحاله وان كان من قبيل السفه فيسمح وبناء عليه »

« يجب عليك أن تفيدنا عن كل ما يحصل ويحدث من هذا القبيل ليتيسر »

« لنا الحكم على الاقوال بعد معرفة قائلها والنظر فيما اذا كان يلزم محاكمتهم »

« او تركهم »

﴿ في الكتابات ﴾

ان الكتابات قد تحتوي على أشياء يتوفر فيها الشبوت أكثر من
الاقوال . لكن اذا لم تكن مجهزة لارتكاب جريمة ضد الملك فلا تؤخذ
أساساً لموضوع هذه الجريمة .

ان « أغسطس » و « تيبير » قد وضعا عقوبة على ما تحتويه المحررات
« ف أغسطس » قرر العقوبة على بعض الكتابات التي تشف عن التنديد
بالنبلاء من الرجال والنساء . و « تيبير » قد قرر العقوبة على الكتابات التي
ظن أنها تعنيه . فنشأ عن ذلك ضرر جسيم بحرية الرومانيين فاتهمه
« كرىموسيوس كريدوس » انما كان لانه ذكر في تاريخه على أن
« كاسيوس » آخر خلف للرومانيين .

ان كتابات الهجو والقذف تكاد أن لا تعرف في الحكومات المطلقة
لما أن الخول من جهة والجهل من أخرى يسطيان على القول فيمدمان منها
الارادة أما في الحكومة الديمقراطية فلا حرج عليها بالنظر لذات الاسباب
التي ذكرت عن الحكومة المطلقة .

ان كتابات الهجو والقذف لما كان القصد منها التنديد باصحاب
المناصب السامية فان الشعب يرتاح اليها في الحكومة الديمقراطية لانها تحرك
فيه حاسات الخبث والمكر . أما في الملكيات المطلقة فانها ممنوعة واذا
حصلت فيعتبر فعلها أنه مخالفة وليس بمنحة . وهي تسلي الافكار وتبسط
السدور وتشغل العامة عن التطلع الى الوظائف وتجعل الشعب أن يصبر على
بلواه ويضعها على ما يعاينه .

ان الحكومة الارستقراطية تكثر فيها هذه الكتابات لما أن رجال حكومتها يكونون كأصاغر الولاية ليس عندهم من عزة النفس ما يحملهم على الازدراء بمثل هذه الالهانات . أما في الحكومة الملكية المقيدة فاذا صوب الهجو سهمه ضد الملك فلا يمس به بالنسبة لعلو مقامه انما اذا أصاب أحد أعيان الحكومة الارستقراطية فيصديه ولا يخطئه ولذلك فلجنة (الديسمير) التي كانت تؤلف حكومة ارستقراطية كانت تعاقب بالاعدام أصحاب تلك الكتابات (اه)

ومن الذي ذكرناه يعلم الخير أن قوانين الأئمة تحظر فساد الرأي والشطط في الأقوال والأفعال خصوصاً مع الملوك والخلفاء والسلاطين . وقررت عقاباً صارماً لكل من لم يتحسب في كلامه وفعله كما هو واضح مما نقلناه عن أصول النواميس والشرائع واختلعت في جعل العقاب بالاعدام أو اعتبار الجريمة جنحة لا جناية . وهذا اذا كان الشطط في الكلام غير متمدن الشتم أو القذف أما اذا كان الشذوذ يتضمن تحريضاً على ثورة أو تهيباً للشق عصا الطاعة فلا خلاف في عقاب الاعداد . والشرعية المحمدية توخت في ذلك أسلم السبل وأنجأها من الخطل والخلل حيث قررت وجوب اعدام أو نفي أو صلب من اعتدى على حقوق الولاء وحض الناس على البداء وقاوم راحة المسلمين وناصرهم بالبلاء والشقاء العظيم . وما مثل جلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الأعظم (عبد الحميد خان) الاكرم مع الفارين الا مثل أب رحيم كريم تجلى بين أبنائه بمجالى الرحمة والكرم ففرهم ذلك . منه فخر جواد عليه لظهم الاستزادة بالخروج والاستفادة من هذا التضائل الذي تصنعوا به ولم يفتنوا عند حد فيه . فلما رأى جلالته أن الحلم اذا لم تكن له بوادر تعمي

صفوه من التكدير فلا خير فيه أذهب القررة بصرامة العقاب لو لم يعودوا
الى صوابهم ويلتزموا حدود آدابهم مع مليكهم وسلطانهم . ولم يبد الشدة
التي أبدوها الا رعاية لصلحة الامة . والا فجلاته بعيد عن أن تناله شريرة
الفاسين الداعين الى هجر الوفاء والتفحش في القذع للولاء . فكان حاله
ينادي القوم بلسان الخبير المنطبق على واقعة الحال حيث قال

تخذتكم درعاً حصيناً لتدفعوا * سهام العدا غني فكنتم نصالها

وقد كنت أرجو منكم خير ناصر * على حين خذلان اليمين شمالها

فان أتم لم تحفظوا المودتي * ذماماً فكونوا لاعليها ولا لها

قفوا وقفة المذور غني بمعزل * وخلوا نبالي للعدا ونبالها

ومن الأدب الصحيح أن يعادي الشعب من يعادي مليكه وسلطانه
لضرورة كون الشعب صديق صاحب الشأن فيه وحاميه وكافيه . والصدقة
أحكام . هي أن يحزن الصديق لحزن صديقه ويسر لسروره

وصفة القول في هذا الباب أن الأدب الحقيقي الذي هو البرهان

الأول على عبودية الانسان لربه وحسن تبعيته لنبيه صلى الله عليه وسلم

وولائه لامامه الذي هو صاحب السلطة الشرعية عليه يجب أن يكون الشعار

الخالص من كل ما ينافي الاخلاص . وقد أقننا الحجة على كل مكلف بانه

لا يعتبر انساناً تابعاً لدين مقدس محترم الا اذا كان مستظراً على الأطوار

الخبيثة بالشهامة والاقدام والمحافظة على آداب الدين والولاء واحترام الوازع

الاكبر ونوابه الكرام . وهذا الباب الأول يرتبط كل الارتباط بحالتنا

العمومية مع امامنا وخليفتنا الحاضر ألا وهو جلالة السلطان (عبد الحميد خان)

أيده الله بروح من عنده . فينبغي أن تكون فصوله مدرسة لا اخلاقنا وأفعالنا

وصفتنا نتعلم منه كيف نكون مع الله ورسوله ونائبها علينا . ومن أبعده
 الشيطان عن درك الحقيقة في ذلك فهو شرير منبوذ من جامعة الدين والولاء
 مبغوض من الله والناس . وليس في الأمر ما يدعو إلى تفصيل آثام وسيئات
 المفترين على مقام الخلافة لأن الناس جميعاً علموها وظهرت لهم أسرارها
 واستنارت بصائرهم وعلموا أن كل ثرثار لا حياة له بين الأحياء إلا حياة
 الفراش الذي يرمي بنفسه على النار ويسكن منارها

والذي يطالع هذا الباب بامعان يقف منه على سر البيعة وآدابها بل لو
 أدرك ما نرصد إليه من أحوال الصحابة رضوان الله عليهم لتعلم كيف يحذف
 من ضميره أخلاط السوء والتفدع ويتحد مع المختصين على الالتفاف حول
 العرش الحليدي المسكين . خصوصاً وأن تاريخ آل عثمان الأظهار لو أردنا أن
 نصاغي بينه وبين تاريخ العرب وخلفائهم الراشدين لامتاز تاريخ آل عثمان
 باسم أسباب الامتياز وأشرفها .

لم نسمع في تاريخهم عن اراقة دماء المسلمين لنرض الحصول على
 منصب أو مركز امامة عامة أو سلطنة خاصة بل كانت غزواتهم رضي الله
 عنهم لا تتعدى أعداء الاسلام الطامعين في بلاد وأهله . أما تاريخ العرب
 فلا نكاد نقرأ صحيفة واحدة منه إلا ونرى الف غزوة اسلامية بين طائفتين
 مسلمتين وزعيمين مسلمين لاجل التفوق والموثوق واستدراك المنصب السامي
 منصب الخلافة العامة . ولولا أن الصحابة رضوان الله عليهم يتجهدون في
 أفهامهم لا يلبق بهم التشاجر لنرض نفساني أو ابتغاء علو في الارض لما فهم
 القاصرون من تاريخهم الا أنهم قوم من الهمجية بمكان عظيم . ولكن وجود
 مثل سيدنا أبي بكر الصديق وهو أفضل المؤمنين وعمر الفاروق وهو

أعدل إمام في الأمة وعثمان ابن عفان وهو أسلم الصحابة عقبي وعلى كرم
الله وجهه وهو سيد النجدتين وإمام الطائفتين وباب مدينة العلم يرفع الوصمة
ويدفع التهمة

فهؤلاء بلا ريب هم أركان الإسلام الدعيمة وعماد مجده النخيم
رضوان الله عليهم أجمعين . وصراياهم أشهر من أن تذكر وقد اتخذها
الغريون دستوراً لأعمالهم العمرانية ونظاماتهم الدستورية وقد سوا سمعهم
وقدروهم في الهمة والاقدام وشهامة القلب وعزة النفس وطهارة الاعراق
ونزاهة الاعلاق ومكارم الاخلاق وحسن اليقين في الدين وسلامة الصدور
من دواعي التفرير والغرور حق قدرهم . فبهم حفظ للعرب مجدهم وعلا
شأنهم وزالت وصمة العار الذي لحق بتفرقهم وتمزقهم كل ممزق في كل
صقع وناد . وجهة وقبيلة وعشيرة . على أن هؤلاء مها علت سمعهم وطار
صيتهم وقدس التاريخ بحمد الصحابة منهم فما سمعنا ولا رأينا ما نسمعه ونراه
اليوم عن آل عثمان الكرام من احترام الدين والخشوع والخشية لله . وان
آل عثمان في الواقع أول من علموا الأهم كيف تحترم القرآن الكريم وتحفظه
من عوادي العدوان . بل لو وجدوا كلمة من القرآن في ورقة ملقاة في بيت
أو سبيل ربما حملتهم هذه اللقيا على إثارة حرب عوان بينهم وبين أعداء
المصحف الشريف . وبالجملة فغيرتهم الشريفة على الدين لا تشاكه أو تشابه
حيث انفردوا بذلك

هذا والدولة العثمانية باجماع المؤرخين أعظم دولة جمعت بين سياسة
الملك والدين ودامت خالدة وأثبت لها التاريخ العمراني أسمى المناقب وأشرفها
وادعائها الى الترضي عن آل عثمان المعظمين . ولو كان هذا الباب محل بسط

مآثرهم الفراء لسردناها بكل توسع ولكن ذلك لا يفوتنا في محله من هذا الكتاب ان شاء الله

ونختم هذا الفصل بان الآداب الشرعية تحفظ للمؤدّب بها ذكراً حسناً وسمعة صالحة وسيرة طيبة طاهرة . ومهما يكن من الأمر فان الدولة العثمانية هي الدولة الاسلامية الوحيدة التي أصبح لها الحق الأوّل في الخلافة والامامة . وقد قرر علماء الدين بان السلطان الاسلامي لا ينفك عن الخلافة ولا تتعدّد محالّ الامامة الا اذا تمذّر وصول دعوة الخليفة الأعظم الى سائر الاقطار الاسلامية أما اذا لم يتعذر ذلك فتوحيد الخلافة واجب مقدس مرعي في الدين والأدب . ولا أخال عاقلاً يحكم بتعذر الصلات بين الأمم الاسلامية في هذا العصر بل هي متصلة واتصالها أضحى أمكن ارتباطاً من ذي قبل أي في عهد الخلفاء الأوّلين الذين كانت الخلافة في عصورهم متوحدة المرجع والمحل

وقد قدمنا ما تجب مراعاته على كل مسلم ومسلمة من أن الأدب مع ولادة الأمور أدب مع الله ورسوله باجماع أهل الرأي في الدين والشريعة ولا جائز أن نحكم بان جلالة مولانا الخليفة الأكرم السلطان (عبد الحميد) ليس اماماً عامّاً وخليفة شرعياً لما علمت من وجوب الاعتراف بالامامة والخلافة في آل عثمان الطاهرين وانفرادهم بها في هذا العصر الحميدي المنير . وما دام الأدب رائد قلوب الافراد فبشرهم بالنور والنجاح العظيم والله سبحانه وتعالى على ما نقول وكيل وشهيد

﴿ الباب الثاني ﴾

﴿ في الحقوق العامة المتبادلة بين الامام والأمة ﴾

(وفيه خمسة فصول)

« الأول في حقوق الخليفة الشخصية . الثاني في حقوقه العمومية »

{ الثالث في حقوق الأفراد . الرابع في حقوق الأمة العامة }

(الخامس في التوفيق بين الحقوق وتوحيدها)

﴿ الفصل الأول ﴾

﴿ في حقوق الخليفة الشخصية ﴾

الخليفة كما قدمنا فرد من الأمة توفرت فيه الصفات المؤهلة له لأن يكون وازع الأمة وامامها . وانسان كامل ترجع اليه آداب الشعب والافراد لما أحرزه من الفضل والسبق في الخلق الكريم وسعة العقل وحسن التدبير وقام التبصر وسلامة الفراسة . وبهذه المميزات الفاضلة استحق الحقوق الواجبة لانفس الخلفاء الراشدين . وهي الاحترام لشخصه الكريم وتمثيل آيات امتيازته وأسباب فضله التي رقت به الى عرش الامامة الأقدس . واحترام الخليفة حق من حقوقه الشخصية وواجب من واجبات الامة العمومية يبعث في النفوس روح الادب ويحضها على صلة الوزع الحقيقي فيما بينها . والتوقير وهو ثاني الحقوق ومن أوجبها على الامة للامام . فان الخليفة اذا لم يوقر ويحترم ساءت أخلاق القوم وفسدت عقائدهم واشتمت آدابهم .

خصوصاً وأن الخليفة بحقوقه يمثل كبير القوم بحقوقه الواجبة له على صغارهم .
فلو لم يوقر كبير القوم من صغارهم فقد فسدت الأخلاق وانقسمت العشيرة
وساءت رجعة القوم

وفي هذا المقام يجمل بنا أن نذكر ما قاله العلامة ابن طباطبا في كتابه
(الفخري في الآداب السلطانية) مختصاً بهذا الباب أعني في الحقوق التي
للملك على رعاياه حيث قال :

ان للملك على رعيته حقوقاً وان لهم عليه حقوقاً . فاما الحقوق التي تجب
للملك على رعيته فمنها الطاعة وهي الاصل الذي ينتظم به صلاح أمور الجمهور
ويمكن به الملك من الانصاف للضعيف من القوي والقسمة بالحق . ومما
جاء في التنزيل من الحث على ذلك الآية المشهورة في هذا المعنى وهي قوله
تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم)
ومن أمثالهم (لا إمرة لمن لا يطاع) ولم ينقل في تاريخ ولا تضمنت سيرة من
السير أن دولة رزقت من طاعة جندها ورعاياها مارزقته هذه الدولة القاهرة
المتولية فان طاعة جندها ورعاياها لها طاعة لم ترزقها دولة من الدول . فأما
الدولة الكسروية فانها على عظمتها ونفامتها لم تبلغ ذلك . وقد كان النعمان بن
المنذر ملك الحيرة نائباً لكسرى على العرب وبين الحيرة والمدائن التي كانت
محل سرير ملك الكسرة فراسخ معدودة . والنعمان في كل أيامه قد عصى على
كسرى واذا حضر مجلسه تبسط وتجرأ على مجاوبته وكان متى أراد خلع
طاعته دخل البرية فأمن شره . وأما الدول الاسلامية فلا نسبة لها الى هذه
الدولة حتى تذكر معها . فأما خلافة الاربعة الأول وهم أبو بكر الصديق
وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم وعلي بن أبي طالب عليه

للسلام فانها كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية في جميع الاشياء .
كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الفليظ وفي رجله نعلان من ليف
وحمائل سيفه من ليف ويمشي في الاسواق ك بعض الرعية واذا كلم أدنى
الرعية أسمعه أغلظ من كلامه . وكانوا يعدون هذا من الدين الذي بعث به
النبي صلوات الله عليه وسلامه

قيل ان عمر بن الخطاب جاءته برودة من اليمن فقرقها على المسلمين
فحصل نصيب كل رجل من المسلمين برودة واحدة . ثم حصل نصيب عمر
كنصيب واحد من المسلمين . قيل فقضله عمر ثم لبسه وصعد المنبر فأمر
الناس بالجهاد فقام اليه رجل من المسلمين وقال . لا سمعاً ولا طاعة . قال لم
ذلك . قال لانك استأثرت علينا . قال عمر بأي شيء استأثرت . قال ان
الأبراد اليمنية لما فرقها حصل لكل واحد من المسلمين برودة منها وكذلك
حصل لك . والبرد الواحد لا يكفيك ثوباً ونراك قد فصلته قيصاً تاماً وأنت
رجل طويل . فلو لم تكن قد أخذت أكثر منه لما جاءك منه قيص .
فالتفت عمر الى ابنه عبد الله وقال . يا عبد الله أجبه عن كلامه . فقام عبد الله
ابن عمر وقال . ان أمير المؤمنين عمر لما أراد تفصيل برده لم يكفه فناولته
من بردي ما تمه به . فقال الرجل . أما الآن فالسمع والطاعة (هكذا نقل
ابن طباطبا في الفخري) وهذه السير ليست من طرور ملوك الدنيا وهي
بالنبوات والأمر الأخرية أشبه

وأما خلافة بني أمية فكانت قد عظمت وتفخم أمرها وعرضت
ملكيتها ولكن طاعتهم لم تكن كطاعة هؤلاء . كان بنو أمية في الشام وكان
بنو هاشم بالمدينة لا يلتفتون اليهم واذا دخل الرجل الهاشمي على الخليفة

من بنى أمية أسمعته غليظ الكلام وقال له كل قول صعب . وأما الدولة العباسية فلم تبلغ طاعة الناس لها ما بلغت هذه الدولة مع أن مدتها طالت حتى تجاوزت خمس مائة سنة ومملكتها عرُضت حتى أن بعضهم جبي معظم الدنيا . وسنقع الإشارة الى ذلك عند الكلام على دولة بني العباس وحاصل الدنيا في أيام الرشيد في قصة جامعة تشتمل عليها وكتب التاريخ تدل على ذلك فأما أوائلهم فجبوا شطراً صالحاً من الدنيا وقويت شوكتهم كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم والمعتضد والمتوكل ومع ذلك فلم تكن دولتهم تخلو من ضعف ووهن من عدة جهات . منها امتناع الروم عليهم وقيام الحرب بينهم وبين ملوكها النصارى في كل سنة على ساق ومع ذلك فكانت بدايتها تستصعب عليهم وملوكها لا يزالون على الامتناع منهم . وقد كان من أمر المعتصم (عموريه) ما بلغك . ولعل طرناً منه يبلغك في هذا الكتاب عند الكلام عن الدولة العباسية . ومن أسباب الوهن الواقع في دولتهم خروج الخوارج في كل وقت

فأما المنصور فلم يشرب ريقاً حلواً . من ذلك أن خرج عليه النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالحجاز فجرت بينه وبينه حروب أفضت الى ارسال عيسى بن موسى بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس الى الحجاز لمحاربة النفس الزكية فقتله بموضع قريب من المدينة يقال له (أحجار الزيت) ولذلك سمي النفس الزكية قتيلاً أحجار الزيت . وخرج عليه أخو النفس الزكية وهو ابراهيم بن عبد الله بالبحرة فقتل المنصور لذلك غاية القلق وقام وقعد حتى توجه اليه عيسى بن موسى فقتله بقرية قريبة من الكوفة يقال لها (باخري) فهو يعرف بقتيل باخري

رضي الله عنه . ومن هاهنا حقد المنصور على العلويين وفعل بهم تلك الأفاعيل . ولعل طرفاً منها يبلنك في هذا الكتاب اذا انتهيت من الكلام على الدولة العباسية . وكذلك أمر الخوارج مع الخلفاء خليفة خليفة حتى كان الرعية لا ينامون في بيوتهم آمنين ولا يزالون يتوقعون الفتنة والحرب كما كان حال آل قزوين في محاورة قلاع الملاحدة

حدثني الملك امام الدين يحيى بن الافتخاري رضي الله عنه قال : اذكر ونحن بقزوين اذا جاء الليل جعلنا جميع ماننا من أساس وقماش ورحل في سرايب لنا في دورنا غامضة خفية ولا تترك على وجه الارض شيئاً خوفاً من كبسات الملاحدة فاذا أصبحنا أخرجنا أثشتنا فاذا جاء الليل فعلنا ذلك . ولأجل ذلك كثر حمل القزاونة للسكاكين والسلاح . وما زال الملاحدة على ذلك حتى كان من أمر شمس الدين قاضي قزوين وتوجهه الى (قاف) واحضار العسكر وتخريب قلاع الملاحدة ما كان وليس هذا الموضوع موضع استيفاء الكلام في هذا فانه اعترض وليس بمقصود . وكما جرى للموفق بن المتوكل في مرابطة الزنج أربعة عشر سنة ما زال يطارد هم من البصرة وواسط طول هذه المدة حتى أفنأهم وكان لطول المدة قد ابنتى الزنج هناك مدائن ثم خربت .

وأما أواخرهم أعني أواخر خلفاء بني العباس فضعفوا غاية الضعف حتى

عصت تكريت عليهم وفي ذلك يقول شاعرهم

في العسكر المنصور نحن عصابة * من دولة أخسس بنا من معشر
خذ عقلنا من عقدنا فبما ترى * من خسة ورقاعة وتهوّر
تكريت تعجزنا ونحن بعقلنا * نمضي لناخذ ترمداً من سنجر

وكانوا أعني المتأخرين من خلفاء بني العباس قد اقتصرُوا في آخر الأمر على مملكة العراق فحسب . حتى أن أربل لم تكن في حكمهم . ونازلت عن حكمهم إلى أن مات مظفر الدين بن زين الدين علي كوجك صاحب أربل . وذلك في أيام المستنصر فعين علي شرف الدين أقبال الشراي وكان مقدم الجيوش ليتوجه إلى أربل ليفتحها . وجهزه بالعساكر فتوجه الشراي إليها وأقام عليها أياماً محاصراً ثم فتحها فضربت البشائر ببغداد يوم وصول الطائر بفتحها . فانظر إلى دولة تضرب البشائر على أبواب صاحبها ويزين البلد لأجل فتح قلعة (أربل) التي هي اليوم في هذه الدولة من أحقر الأعمال وأصغرها وأهونها . بلى قد كان ملوك الأطراف مثل ملوك الشام ومصر وصاحب الموصل يحماون إليهم في كل سنة شيئاً على سبيل الهدية والمكافئة ويطلبون منهم تقاييداً بولاية بلادهم بحيث يتسلطون بذلك على رعييتهم ويوجبون عليهم طاعتهم ولعل الخلفاء قد كانوا يعرضون ملوك الأطراف عن هداياهم بما يناسبها أو يفضل عنها . كل ذلك لحفظ الناموس الظاهر وليكون لهم في البلاد والأطراف السكة والخطبة حتى صار يضرب مثلاً لمن له ظاهر الأمر وليس له في باطنه شيء أن يقال : قنع فلان من الأمر القلاني بالسكة والخطبة . يعني قنع منه بالاسم دون الحقيقة . فهذه جمل من أحوال الدولة العباسية . وأما الدولتان البويهية والسلجوقية فلم تعرض مملكتيهما مع قوة شوكة ملوكهما كمضد الدولة في بني بويه وطغرل بك في بني سلجوق ولم تتم طاعتها ولم يشمل ملكهما . وأما الدولة الخوارزمية مع أن جريدة السلطان جلال الدين اشتملت على أربعمائة ألف مقاتل فلم يعرض ملكها أيضاً ولا تجاوزت النواحي القريبة منها . بلى جلال الدين غزى أطراف الهند

ومن الحقوق الواجبة للملك على الرعية التعظيم والتفخيم لشأنه في الباطن والظاهر وتعويد النفس على ذلك ورياضتها به بحيث يصير ملكة مستقرة وتربية الأولاد على ذلك وتأديبهم به ليتربى هذا المعنى معهم . وهاهنا موضع حكاية ، وهي أن سلطان هذا العصر ثبت الله قواعد دولته وبسط في الخافقين ظل معدلته لما ورد الى بغداد في سنة ثمان وتسعين وستمائة دخل المستنصرية لمشاهدتها والتفرّج فيها . وكانت قبل وروده اليها قد زُيّنت وجلس المدرسون على سدادهم والفقهاء بين أيديهم وفي أيديهم أجزاء القرآن وهم يقرؤون منها . فاتفق أن الركاب السلطاني بدأ بالاجتياز على طائفة الشافعية ومدرّسها الشيخ جمال الدين عبد الله العاقولي وهو رئيس الشافعية ببغداد . فلما نظروا اليه قاموا قياماً فقال للمدرس المذكور كيف جاز أن تقوموا لي وتتركوا كلام الله . فأجاب المدرس بجواب لم يقع بموقع الاستصواب في الحضرة السلطانية أعلا الله في الدنيا كلمتها وفي الآخرة درجتها . ثم بعد ذلك حكى لي المدرس المذكور صورة السؤال والجواب . فأما السؤال فهو ما حكيتّه وأما جوابه فلم أضبطه وقلت قد كان يمكن أن يقال في جواب هذا السؤال : ان تركنا للمصحف اذا كان في أيدينا واشتغلنا بغيره لم يجرّم علينا في شريعتنا ولا جعلت علينا في ذلك من حرج ثم ان هذا المصحف الذي قد تركناه وقتنا بين يدي السلطان قد أمرنا فيه بتعظيم سلاطيننا

ومن الحقوق الواجبة للملك على رعيته النصيحة فمنها ما جاء في الحديث صلوات الله وسلامه على من نسب اليه قوله صلى الله عليه وسلم (الدين النصيحة قيل لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولجماعة المسلمين) — ومنها ترك اغتيال الملك في ظهر الغيب قال صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا الولاة

فانهم ان أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر وان أسأوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وانما هم نقمة ينتقم الله بها ممن يشاء فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية والنصب واستقبلوها بالاستكانة والتضرع)

هذا ما أورده ابن طباطبا في كتابه متعلقاً بالحقوق التي يجب على الرعية لمليكتها ومنها يعلم القارئ أنه ذكر حقوق الولاية ولم يتعرض لحقوق الخلفاء لان حقوق الخلفاء قررتها الشريعة السمحاء بانها هي حقوق النبي صلى الله عليه وسلم حتى غالى بعضهم فيها فقال : يجب على المسلمين أن يعتقدوا في خليفتهم أنه باطن أسرار الولاية المحمدية ومهبط أنوارها لانه بعرضه يمثلها فيلزم أن يكون أميناً فطناً محفوظاً من الهوي مع السقطات المنافية لاحكام الدين المحمدي الكريم . أما الامانة فهي شرط من شروط الاستحقاق الصحيح . لان الخليفة يعطى لفظه أنه الأمين على حقوق الله في عباده وحقوق العباد أيضاً . والا لو كان غير أمين لما صح أن تكون بيده أموال الناس وأرواحهم يتصرف فيها طبق المصلحة الحقيقية للامم الاسلامية . خصوصاً وأن الانسان لو قال لنيرد مثلاً : انك غير أمين فقد قذفه ورماه بالخيانة والقذف بالخيانة يناقض الأدب الواجب على الرعية للخليفة فكيف لا تكون الامانة شرطاً من شروط الامامة ولو سهى عنه بعضهم . وأما الفطانه فهي شرط تكميلي تلزم ملاحظته في اجماع القوم فان الخليفة اذا لم يكن فطناً بان كان جاهلاً غليظ الرأي بسيط النظر غير ذي دهاء وكياسة وفراصة فقد عرّض حقوق الرعية للضياع ومهد لها سبل الفناء والاضطراب . فتوقياً من ذلك يلزم أن يكون الامام فطناً واسع التدبير زكي الادراك نقي الذكاء غير عيّ او غبيّ أو أوكم أو أخرس مثلاً . وأما الحفظ من السقطات المنافية لاداب

الدين الصحيحة فهو من الكمالات الواجب التحلي بها وان كانت ليست تحت اختيار الانسان الا أن التوفيق الالهي لا يتخلى عن أئمة الدين الراشدين الذين يمثلون على عروش خلافتهم ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم مع أئمة من الادب مع الله والناس . سيما والخلفاء الذين ينتقون ويقع عليهم اجماع الأمة هم ممنوحون من ربهم هداية ونصراً على النفس والعدو فلا سلطان لشیطان عليهم بأي وجه من الوجوه . أما الولاية والأمراء فواجباتهم على رعيتهم تنحصر فيما نقلناه عن ابن طباطبنا وما أوردناه في هذا الباب

فلننظر الآن ان كان جلاله مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الدين الخليفة الأعظم السلطان (عبد الحميد خان) محرزاً لكل هذه الصفات الموجبة لاغتناد خلافته ولزوم طاعته باعتبار كونه اماماً للمسلمين كافة أو لا لا ريب في أن جلاله هذا المليك الأظهر متحلٍ بحلي هذه الفضائل والكمالات كلها فهو الأمين الوحيد الذي لم يتصرف في أموال الملك إلا بالحكمة والعدالة واذا رأى عجزاً في مالية دولته سدّه من ماله الخاص وثروته الطائلة . وهو أول خليفة تبرّع من ماله الخاص بنفقات الحروب واصلاح سبل الممالك الاسلامية مع وفرة المال في خزانة الدولة وأياديه البيضاء قرّرت له حسن الوفاء بحقوق الامانة النبوية التي يختص الله بها أهل العناية والتوفيق . ولم يشع عنه أنه أنفق على نفسه من مال الملك غير ما تقرّر له تطلعاً الى بذخ أو ترف بل اشتهر انه تنازل عن معظم مرتبه الخاص به لمساعدة حكومته في سدّ مطالبها وحاجاتها . ولو أردنا تمديد مآثره الكريمة على الأمم الاسلامية لضافت بنا صفحات هذا الكتاب . اذ لو نظرت الى نظارة النافعة الجميلة لرأيت خزائنها مترعة بالمال تكاد تفيض على الجوانب

وومع ذلك ترى جلالاته لا يستعين بشيء منها في مصالح الدولة بل إذا افترقت
المصالح إلى مال سدده وقام به قومة الحمي الحافظ لحماه بكل أسباب العزة
والجاه . فأمانته رضي الله عنه لا مشاحة فيها ولا تحتمل التأويل . فهو
الأمين الوحيد الذي شاد عماد العزة الحقيقية بأطهر الخصال وأبرر الصفات
والخلال ولم يطمع في أن يستأثر بجاه أو مال . على أن جلالاته لم يأل جهداً
في ترضية نفوس المسلمين فكل قادم إلى دار عرشه المصكين يجد فيها
ما يغنيه فيعيش سعيداً مدة اقامته بها ثم يعود مزوداً بالآلاء والنعم
والتعطفات وكل ذلك من فيض جيبه الخاص لا علاقة له باموال الدولة
التي تختص بالمصالح العامة ورواتب العمال

وبالجملة فلا رأي يخالف رأينا هذا في أمانة مولانا أمير المؤمنين . فقد
تضمنت صحف تاريخ هذا العصر كل الدلائل المحققة لأمانته وسخائه وكرمه
ومن ثروته الخاصة به . ولم تدوّن في بطون التاريخ مآثر تضارع هذه المآثر
الحميدية لخليفة من الخلفاء السابقين بعد الراشدين عليهم رضوان الله أجمعين .
وأما فطنته رضي الله عنه فقد طبق الخافقين أمرها وشهد سياسيو العالم
بأسرهم أن فطنته لا تضارع أو تشاكه . وهذا الاجماع العصري ألقى أوربا
وحرّك فيها مثيرات الحذر منه ومن دولته أعزّه الله . وقد حفظت حواظ
التاريخ المتمدد آثار سياسته الحكيمة ودهائه الرشيد مقترنة بالاعجاب العام
من سائر دول الأنام . حتى أن بسمارك الشهير بالحدق في السياسة والحكمة
الغربية لما سئل عن أول سياسي على ظهر الكرة الأرضية لم يسعه إلا أن
يجيب بأن أسمى مفكر وأعظم سياسي ذي دهاء حير الأبواب وتضآلت فيه
الفهوم هو السلطان عبد الحميد . وكان سائلوه ينتظرون منه أن يخبرهم عن

نفسه أو عن غلادستون أو بطرس الأكبر ومن نحائهم واكتسب ما اكتسبوه من طائر الصيت وعظيم السمعة . فلما فاجأهم بجوابه المسطور في التاريخ اندهشوا وقالوا له : نحن لا نعلم إلا أن أول سياسي في هذا العصر هو بسمارك الذي يحدثنا . فقال لهم : ان كل شعرة في جسم السلطان عبد الحميد تحتها ألف بسمارك . فليس برهان أكبر من هذا على فطنة امامنا وسلطاننا وزد على ذلك أنه وحده في مركزه خصم أوروبا بأسرها في الدين والسياسة فلو لم يوفق بدهائه وسياسته الفائقة الى أسباب الحماية والرعاية والوقاية لمالكه لأصبحت دول الاسلام فريسة لضواري الجشع الأجنبي فمنذا الذي يسعه أن يحفظ نفسه ومملكه الواسع في ظروف كهذه تهدد الاسلام بكل الأرزاء والآلام غير مليك موفق من الله وامام عادل تحرس عرشه الملائكة وتمززه عناية الله مع حسن رعايته ألا وهو جلالة السلطان عبد الحميد الذي يملك الكلمة التي لو فاه بها لماسج الكون وتداغت قوائم الوجود وهاجت العوالم وفرّ الملوك قبل رعاياهم الى حيث فناؤهم وهلاكهم . فذكاؤه وفطنته لا يحتملان أيضاً تأويلاً ولا تخريباً

كيف لا وقد شهدت أعماله الجليلة ومشروعاته الخطيرة بعد نظره في الأمور وقراءته أفكار الأمم المناوئة للاسلام حيث عمد الى حماية بيت الله الحرام بمشروع سكة حديد الحجاز والسلك البرقي الرابطين للممالك الاسلامية والحافظين لكيان الحرمين المقدسين . لا نطن وجود جهاد لا يستقر في نفسه برهان فطنة هذا السلطان فضلاً عن الانسان . ولو حاولنا بسط أقوال الساسة في ذكاء وفطنة جلالة مولانا أمير المؤمنين لاحتجنا الى مجلدات كثيرة فحسبنا في موضوع كتابنا هذا ما ألمعنا اليه بطريق اجمالي حتى يتيح

الله لنا فرصة تتمكن فيها من التفصيل الواسع . وربما أتينا ببعض ما نعلمه
في الباب الثالث ان شاء الله .

وأما الحفظ من السقطات الدينية فبحمده تعالى قد وفق له جلالة مولانا
أمير المؤمنين . اذ لم نسمع عن جلالة أنه خالف دين ربه في أمر من أمور
المسلمين فضلاً عن صلاحه رضي الله عنه ومحافظته على القرائن الدينية
والشعائر المليّة المقدسة . وإن أعداءه يشهدون بذلك وبشدته في أمر الدين
وكمال تمسكه بالعقيدة الصحيحة التي هي الدستور العادل لاصلاح أمر الأمة
ولو رأى القارئ لهذا الكتاب مشهد موكب السامي يوم الجمعة لأداء القرية
الشرعية لحدثته نفسه بانه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم المبارك
بجلالة منظره وجمال موكب . اذ يرى الخشوع سائداً على الناس أجمعين
والخضوع مائلاً أفقدهم والاحترام لجلالة امامهم يعاود وجوههم ويكتنف جوارحهم
والعلماء والوزراء محيطون بعربة الخليفة واضعي أيديهم على صدورهم يمثلون
أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرى الأجنب ينظرون نظر الخشية
والوقار والهيبه ملياً صدورهم والرهبة تكاد تقذفهم وترمي بهم الى الأرض
صرعاً وصعقاً .

فهذا المشهد الديني الرهيب المؤثر على النفوس كلها برهان ساطع يبعث
في ضمائر الكافة الادعاء الكامل والاعتقاد الراسخ بان امام المؤمنين
وسلطان الموحدين محفوظ بربه من السقوط فيما يخالف دينه بأي وجه من الوجوه
وأكبر دليل على هذا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم (الناس على دين
ملوكهم) فاذا كان الملك صالح الزواد حسن السير والسيرة طيب العمل تقياً
نقياً شديداً في دينه متعبداً متزهداً كانت أمته كذلك وكانت مدينته التي قام

فيها عرشه تمثل المدينة التي بها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .
 فبناء على ذلك نرى دار الخلافة وهي القسطنطينية هي المظهر الأول
 لأخلاق جلالة الخليفة وتدينه بدينه القويم . وهي غاية في إقامة الشعائر
 الإسلامية وسكانها لا يفوتهم وقت فريضة مكتوبة حتى حطر جلالة الخليفة
 على أهل الاستانة التي هي (القسطنطينية) الاشتغال بالأعمال عند حلول
 أي وقت من الاوقات الخمسة المفروضة . فاذا كنت في دار السعادة وحل
 وقت منها رأيت العامل خلواً من عمالها والخوانيت كذلك . وأما المساجد
 فتراها ملاءى بالمصلين والعباد فاذا قضيت الصلاة انتشر الناس وباشروا
 أعمالهم بكل هدوء وسكينة ووقار وأدب وحشمة وكرم أخلاق وحسن معاملة
 فلو كانت أخلاق الامام غير دينية محضة لما كانت هذه الاحوال الشريفة
 والاطوار الإسلامية المقدسة شعار أهل الاستانة وسكانها

ظهر من كل ذلك أن جلالة الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد حاز
 على كل الصفات والاخلاق ومستكمل لكل شروط الاستحقاق للخلافة
 والامامة . اذ كل ما قدمناه دالٌّ ببلغ دلالة وأشرفها على أن جلالته أكمل
 الخلفاء أدباً وديناً مع الله والناس بعد الخلفاء الراشدين . وعلى هذا نختم
 الفصل الاول من الباب الثاني والله وليّ التوفيق والهداية

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في حقوق الخليفة العمومية ﴾

قبل الدخول في هذا الفصل نبسط للمطالع قضية طبيعية تتعلق بأحكام
 الفطرة الالهية المنصبة على العوالم البشرية . وهي أن الشخصيات أسس
 العموميات وقواعدها التي تتحقق بها والجزئيات هي الكليات مع زيادة نسبة
 أو قيد في نشأة الاطلاق الاصيلي في الأمور الكلية . فإذا قلنا مثلاً : ان
 هذا الخلق شخصي فكأننا قلنا إنه عمومي زيدت عليه مزية تأصله في نفس
 صاحبه . كذلك اذا قلنا ان هذا الحق شخصي فهو عمومي مع زيادة نسبة
 الاستحقاق الحقيقية الموجبة على الغير الوفاء بها . وهذه القواعد الاساسية
 لا تعزب عن أفكار أهل الاختبار الذين درسوا علوم العمران وواجبات
 الحقوق وتعلموا العلم المؤهل لهم لان يكونوا ذوي دراية بأحكام الزمان وأحوال
 الانسان . والعجيب منها أن الأمر الكلي يصير جزءاً في أحد الأمور الجزئية
 كما قال العلماء : كل كلى جزء جزئيه وكل جزئي كل لكليه

وقد أسلفنا في الفصل السالف الحقوق الشخصية الواجبة الأداء على
 الرعية لامامها ونريد أن نأتي على الحقوق العمومية التي للامام أيضاً على أمته
 وكان اللازم في الترتيب الفني أن نأتي بالكليات أولاً ثم نثني بالشخصيات
 التي هي الجزئيات لكننا رأينا أن نلتزم الترتيب الفطري بالقول الشارح فنبسط
 النسب باعتبار علاقتها الاصلية ثم نشرحها مجردة لتكون أعلق بالأفكار
 وأمكن في الفهم وأقرب للوجدان خصوصاً وأن الأمر معنا في هذا المقام

على غير ما توخاه أهل فن القياس . لأن أهل القياس يتخذون الكليات مقومات ومكونات للجزئيات . أما هنا فالجزئيات مقومة للكليات أي أن الحقوق الشخصية مكونة للحقوق العمومية والنسبة أي نسبة الحقوق الى مرجعها واحدة في الحالتين أي في الخصوص والعموم . على أن هذا البحث ليس طول الكلام فيه مقصوداً لنا فحسب أهل العلم ما ألمعنا اليه في هذا الإيجاز . ولنعد الى موضوعنا الحقيقي وهو التكلم عن الحقوق الواجبة بصفة عمومية لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الغازي (عبد الحميد خان) أعز الله به دينه فنقول :

اعلم أن الحقوق التي شرحناها في الفصل المتقدم هي وان كانت شخصية أي واجبة لشخص جلالة الخليفة الاسلامي فهي عمومية أيضاً أي واجبة المراعاة بين المؤمنين اقامة لشعائر القاعدة النبوية (لا تزال أمتي بخير ما وقر صغيرهم كبيرهم ورحم كبيرهم صغيرهم) فاذا قطعنا النظر عن صفة الامامة والخلافة ونظرنا الى كون الامام في نفسه مسلماً قائماً خاشعاً لله ساعياً المكافحة عريق الاصل شريف المحتد كريم العنصر قويم النشأة كبير المقام نافذ الكلمة في عشيرته محترماً في سربه غنياً عفواً طاهراً الذليل وجب علينا معاشر المؤمنين احترامه لا لكونه اماماً فقط بل لكونه مطلق مسلم تحلى بأسمى الصفات وأشرف الخصال . وتحتم على الكافة الانقياد لرأيه في الدين بما يراه مؤيداً لمبادئه مقيماً لشعائره واقياً له من سطوات الاعداء وعدوان الدخلاء . فكل الحقوق التي بسطناها فيما سلف من الطاعة والاحترام والتعظيم والتوقير يستحقها المسلم المتصف بالصفات المتقدمة فليست مختصة بالامام والخليفة وانما تقررت لهذا بطريق الأولوية فقط . اذ رواة السنة والحديث الأئمة

على دين الأمة وأحكامه وقواعده لم تحترم روايتهم الاّ بالاذعان لهم بالصفات السالفة التي اكتسبوها وتواترت عنهم والاّ لو كانوا على غير الصفات القويمة لما قبلنا روايتهم ولا صدقناها بل كنا نضرب بها عرض الحائط .

فظهر أن سبب التصديق هو الاذعان بوفور الاخلاق الكريمة والصفات المقدسة الموجبة لتحقيق آداب الدين وتبادلها بين المسلمين . ولو كنا نعلم أن استحقاق الامامة قد يكون بغير التحلي بالصفات المرجحة لها لما أقدمنا على بسط هذا الذي بسطناه . فان الزعامة اذا لم تكن آداب الدين لها خير دعامة وأقوم ركن كانت حباله من حبال الشيطان وفارقها روح الاعتدال المحمدي بل قلاها السير على المناهج الشرعية . أما اذا كانت ودعائها آداب الدين فهي بعينها زعامة الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون لها من الحقوق ما ليس لغيرها من الصفات المميزة للمراتب البشرية . وعلى هذا لا يؤود القارئ حفظ الاخلاق التي يتمكن بها من الحفيظة عن الحقوق المتبادلة . فاذا تجلت له حقائق المقاصد استخلص لنفسه خلاصة سرّية لا دابة مرقية لأخلاقه ورافعة لنفسه ومقومة لأفكاره ومرشدة لعقله الى كيف يسير مع عشاره ومعاصريه وولي أمره وامامه الشرعي . وفي هذه الحالة يتمكن المفكر الناظر نظر الحكمة والاختبار أن يفهم النكتة التي توخيناها لتوحيد الحقوق بصفتيها العمومية والخصوصية ويدرك أن البيان الذي قدمناه في معنى الحقوق الشخصية للخليفة مع النقول التي نقلناها في ذلك كافٍ في فهم الحقوق العمومية خصوصاً اذا استعمل العقل في المطالعة ولم ينصرف فؤاده بصوارف الحماية والغاية أو ينشغل بمشاغل النفس وشواغل الحسد والحس ولم يمدّ وجدانه لقبول أنوار المعاني التي تفيض على أفئدة المتقبلين على فهمها

بالعزيمة والصدق والاخلاص . وأملنا أن يكون مطالعوا هذا الكتاب كلهم
أو جلهم من اخوان الرعاية والعناية

فالطاعة المفروضة للخليفة حق من حقوقه الشخصية والعمومية أيضا .
بيان ذلك أن هذا الحق يستحقه الخليفة بمكانته الشخصية من أفئدة الرعية
بوتأصل في أخلاق الدين تحقيقاً لتوقيع الصغير للكبير في شريعة البشير
النذير صلى الله عليه وسلم . لأن الإنسان المستكمل للشروط التي تقدمه على
سواه في احتمال اعباء الملك والخلافة العامة ليس هيت المكانة أو ضعيف
العشيرة أو غير محترم في قومه بل لا بد وأن يكون عريقاً مطاعاً محترماً
مقدس الرأي في الأمة قبل أن يولى . وهذه سنة قدسها التاريخ ولم يرو لنا أن
مهاثراً ذليلاً حقيراً ليس محرراً للصفات المرجحة لكمال عقله وأدبه تولى أمر
المؤمنين دفعة واحدة فينتقل لأوّل وهلة من تحقير العامة له الى احترامهم
بلا أسباب تحمل الأمة على ذلك قبل التولية . فظهر لك أن الاستحقاق
للزعامة هو وحده البرهان الاول على وجوب الطاعة سواء ولي المطاع أمر
المسلمين أو لم يول . فاذا كانت الطاعة حقاً من حقوق الإنسان الكريم
الخلق والخلق بصفة عمومية فهي بالاولى حق من الحقوق الشرعية المقدسة
المكتسبة للخليفة العام والسلطان الأكبر الذي يبدد أمر المؤمنين . وكذلك
بقية الحقوق المتبادلة بين الرعية والامام وتقدمت في هذا الكتاب فانها كما
هي مستحقة للإنسان الصالح النفس والعمل كذلك هي مستحقة للامام والخليفة
على سبيل التعميم .

نورد على ذلك وجوب نصره الامام في آماله وأمياله وتسديد آرائه
هو تأيدها وحب الخير له ورد اقتراء الاعداء عنه ودرء كل تهمة وجهت اليه

من عدو أو دخيل والخطبة باسمه على منابر عامة المسلمين وخاصتهم . فان هذه الحقوق عمومية لم تتعين للإمام إلا بعد التولية فتبادلتها يوم إمارتي الوجوب على سائر المسلمين كالسكة ورعاية الأحكام وعدم الوقوف في سبيل نفاذها .

وكل ذي أصالة في الرأي يشعر من نفسه بكل حق نفسي تحتمه الشريعة المطهرة على كل مسلم لإمامه وولي أمر سائر المسلمين . ولهذا تقتصر في هذا الفصل على ما كتبناه فيه مكتفين بذلك القارئ وأدبه إذا كان كافياً في استظهار الواجبات العامة والخاصة للولاية والخلفاء . وعلى ذلك نختم هذا الكلام بأن موالاة من يحبه الخليفة من حقوقه الواجبة له على رعاياه . فإذا اصطفى إليه رجالاً أمناء مخلصين في مصالحة الدين والأمة وجب على سائر المسلمين اصطفاؤهم أيضاً واحترامهم والوفاء بحقوقهم وعهودهم وعقودهم والتعجب إليهم والتقرب منهم واكتساب رضوانهم السرمدى لأن الخليفة ما اصطفاهم إلا بعد أن آنس منهم منفعة عامة أو خاصة له ولعامة المسلمين وعلى كلتي الحالتين يجب اجتباؤهم لأن المنفعة التي تعود على شخص الامام تعود على عامة المسلمين لضرورة اتحاد الشأن والمصلحة المشروعة كما بينا ذلك غير مرة فيما سلف . وإنما أرشدنا أفكار القارئ لهذا الكتاب الى هذا المعنى الجدير بالرعاية لأن هذه الظروف قضت على المسلمين بأن يتنافروا ويتشاققوا ويتباغضوا ولم يحترموا آداب الاخاء فيما بينهم فترى السعاية بالناس منتشرة فينا كأنها صارت خلقاً من الاخلاق المقدسة . . وكذلك الوشاية والاعراء والافتراء على كبار المقام الذين أحرزوا وافر السمعة والجاه في ظل جلاله الخليفة الأعظم رضي الله عنه

ويا ليت هذا الخلق الذميمة لم يتأصل في أفئدة كثير ممن ظهروا بمظهر الخدمة الممومية ورعاية الأدب القومي . بل هذا الحال الشائن هو وحده في الواقع الحامل لنا على تأليف هذا الكتاب الفريد في بابه . خصوصاً وأن الأعداء ينظرون إلينا فيلمحون من خلال أحوالنا وأطوارنا ما يبعدنا في نظرهم واعتبارهم عن الحضارة والتقدم والصالح والانصلاح ولا سبب لدخول العدو حكماً في مصالحنا وأحوالنا سوى تفريطنا في واجباتنا نحو ولاة أمورنا الذين قدسهم الدين والأدب الحياتي . علي أنه لا فائدة لنا من التمادي فيما بيننا والتصدي والتنافر والتضاد بل في ذلك كل الضرر كما لا يخفى وماذا يضرنا لو تقدم منا إنسان ونال فوق ما نالته الجوزاء من الرفعة والعلو وأحرز لدى الخليفة كل عناية بشأنه ورعاية وتعظيم وحب .؟. بل أي شيء يقدح فينا إذا استخلص جلالته الخليفة لدولته الرجال وقدمهم وأغدق عليهم الجاه والمال .؟. لا شيء علينا ولا ضرر من ذلك يتوجه إلينا وإنما هو فساد التربية اقتادنا إلى هذا النمار الشائن للجامعة والثالم للأدب والجراح للحكمة . ولاجل إزالة ما في صدور الحاقدين على رجال الدولة الكبار الفخام سنأتي على نبذة صغيرة نشرح فيها أسباب ونتائج هذا التضاد الممقوت الذي يفضب الله ورسوله وخليفته . والآن نوقف جواد التحرير عن التوسع في هذا الفصل الوجيز والله هو القوي العزيز

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ في حقوق الافراد ﴾

(وفيه تنبيهان)

« الأوّل في بيان الحقوق المقابلة لحقوق الخليفة »

(الثاني في بيان الحقوق التي لكل فرد علي كل فرد)

{ وفي هذا ارشاد شريف الى آداب العشرة الانسانية }

﴿ التنبيه الاول في الحقوق المقابلة لحقوق الخليفة الشخصية ﴾

اعلم أنه كما للامام على أمته حقوق كذلك للامة على الامام حقوق وقد علمت مما تقدم الحقوق التي للامام على الامة والآن ننبهك الى الحقوق التي للامة كالاشفاق والحماية والعدل والانصاف . وبما أننا نقلنا عن العلامة ابن طباطبا ما قاله في كتابه الفخري عن الحقوق التي للملك فيجب أن ننقل للقراء أيضا ما قاله في الحقوق التي للرعية لما في ذلك من درء تهمة التجيز لغرض مخصوص قال .

وأما الحقوق الواجبة للرعية على الملك فيها حماية البيضة وسد الثغور وتحصين الاطراف وأمن السواحل وقمع الدّعار . فهذه حقوق تلزم السلطان وتجري مجرى الحقوق الواجبة . وبهذه الامور يجب طاعته على رعيته وينجوا من هذا احتيج الخوارج على أمير المؤمنين علي عليه السلام عقب انقضاء

حرب صفين قالوا له : أنت فرطت في حفظ هذا الشجر يعني ثغر الشام
بتحكيمك الحكيم فأنت مخطئ مفرط فليس لك علينا طاعة فان اعترفت
بهذا الخطأ واستغفرت رجعنا الى طاعتك وقاتلنا معك المدو . فعرّفهم عليه
السلام أنه غلب على رأيه في قضية التحكيم وأن التحكيم لم يكن من رأيه
فأصرُّوا على قولهم ولم يقبلوا ونابدوه وقاتلوه حتى كانت الواقعة المشهورة
بالنهروان .

ومن الحقوق الواجبة للرعية على الملك الرفق بهم والصبر على صадرات
هفواتهم قال صلوات الله عليه وسلامه (ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا
كان الخرق في شيء إلا شانه) وقد روي عنه صلوات الله عليه وسلامه (من
الرفق أشياء لا تليق إلا بمنصب النبوة) كان صلاح الدين يوسف بن أيوب
صاحب مصر والشام كثير الرفق موصوفاً به . دخل مرة الى الحمام عقيب مرضة
طويلة أضعفته وانتهكت قوته فأدخل الحمام وهو في غاية الضعف فطلب
من مملوكه كان واقفاً على رأسه ماءً حاراً فأحضر له في طاسة ماء شديد
الحرارة فلما قرب منه اضطربت يد المملوك فوقعت الطاسة عليه فأحرق الماء
جسده فلم يؤاخذ به ولا بكلام . ثم طلب منه بعد ذلك بساعة ماء بارداً
فأحضر له في تلك الطاسة ماء شديد البرد فحين اذقرب اتفق له ما اتفق في المرة
الاولى من اضطراب يده ووقوع الطاسة عليه بذلك الماء الشديد البرد
فغشي عليه وكاد يموت . فلما أفاق قال للمملوك : انك كنت تريد قتي فعرفني : ولم
يزد على هذه الكلمة رضي الله عنه . قيل تقدم رجل أبخر الى بعض الرؤساء
يشاوره فقال له تنح عني فقد آذيتني قال الرجل . لا كرامة ولا عزازة
ما رأسناك وقنا بين يديك إلا حتى تحتمل منا ما هو اشد من هذا وتصبر

منا على ما هو أعظم منه .

ومما يجب للرعية على الملك ردع قوَّيهم عن ضعيفهم وانصاف ذليلهم من عزيزهم واقامة الحدود فيهم واقرار حقوقهم مقارَّها واغاثة ملهوفهم واجابة مستصرخهم والتسوية في حكمه بين الأبعد منهم والأقرب والأذل والاعز . قال عمر بن الخطاب لرجل اني لا أحبك . قال فتقصني من حقي شيئاً؟ قال عمر لا . قال الرجل فما يفرح بالحب بعد هذا الا النساء . ويجب للملك أن يعرف نعمة الله عليه بأن اصطفاه لهذه المرتبة العالية دون سائر الخلق وبأن جملة يفرع منه كل أحد ولم يجعله يفرع من أحد فلا يزال لها ذاكراً شاكراً . فأما الذكر فلا مثال لقوله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث) وأما الشكر فطلب المزيد لقوله تعالى (لئن شكرتم لأزيدنكم) ويجب أن يكون بينه وبين ربه معاملة سرية لا يعلم بها الا الله تعالى . فتلك المعاملة تقي مصارع السوء . وهذه العبارة مقبولة عند جميع أصحاب الملل وعند الحكماء أيضاً هي مقبولة ويمكن تأويلها على هذا المطلوب بحسب اعتقادهم . ويجب أن تكون له دعوات يناجي بها ربه وهي دعوات تليق بالملك لا تصلح للعوام . ولا بأس أن أثبت في هذا الموضع فصلاً من الدعاء الملكي . وهذا مما اقترحته أنا ولم أعلم أن أحداً تنبه اليه

﴿ فصل في الدعاء مختصر ﴾

اللهم اني أبرأ اليك من حولي وقوتي وألجأ الى حولك وقوتك أحمذك على أن أوجدتني من العدم . وفضلتني على كثير من الأمم . وجعلت في يدي زمام خلقك . واستخلفتني على أرضك . اللهم نخذ بيدي من المضائق .

واكشف لي عن وجوه الحقائق . ووفقي لما تحب واعصمني من الزلل ولا
تسلب غني ستر احسانك . وقني مصارع السوء . واكفني كيد الحساد .
وشماتة الاضداد والطف بي في سائر مئصرفاتي . واكفني من جميع جهاتي
يا أرحم الراحمين .

(عود) ويحسن بالملك الفاضل اكرام فضلاء وعيته واختصاصهم
بالبر . قال بعض الحكماء : لا يجوز أن يكون الفاضل من الرجال الا
مع الملوك مكرماً أو مع النساء متبتلاً كالفيل لا يحسن أن يرى الا في
موضعين إما في البرية وحشياً وإما للملوك مكرماً كما قال الشاعر

يمثل الفيل إما عند ملك * وإما في مراتمه منيعا

ومما يكره للملك مخالطة الاندال والسوقة والجهال فان سماع القاطنهم
الساقطة . ومعانيهم المرذولة . وعباراتهم الدنيئة مما يحط الهمة ويضع المنزلة
ويصدئ القلب ويذري بالملك . ومخالطة الاشراف ومعاشرة افاضل الرجال
مما يعلي الهمة ويزكي القلب ويفتح الذهن ويبسط اللسان . وتلك قاعدة
مطرودة للملوك ما زالوا يدخلون اليهم عوام الرعية ويعاشرهم ويستخدمونهم
ولم يخل أحد من الخلفاء من مثل هذا وكأن لسان حالهم يقول : نحن نخلي
الكبار كباراً فاذا اختصصنا عامياً نوهنا بذكره وقدمناه حتى يصير من
الخواص كما أننا اذا أعرضنا عن أحد من الخواص أردلناه حتى يصير من
أرادل العوام . وكذلك هو فان هذه خاصية من خواص الملك وقد سبق
ذكرها .

وكل هذا مأخوذ من الخواص الالهية فان العناية الالهية اذا صدرت
قدرة منها الى النفوس صار ذلك الانسان نبياً أو اماماً أو ملكاً واذا صدرت

في حق الزمان صار ذلك اليوم العيد الكبير وليلة القدر وأيام الحج وأيام
المواسم والزيارات لسائر الأمم وإذا صدرت تلك الذرة في حق المكاتب
صار بيت مكة والبيت المقدس والمشاهد والجوامع والزيارات والمتعبدات
ومواضع الثقربات وها هنا موضع حكاية .

كان ببغداد جمال يقال له عبد الغني بن الدرنوس فتوصل في أيام
المستنصر حتى صار برّاجاً في بعض أبراج دار الخليفة فما زال يحسن التوصل
إلى ولد المستنصر وهو المستعصم آخر الخلفاء العباسيين وكان في زمن أبيه
محبوساً فما زال هذا البرّاج يتعهد بالخدمة طول مدة الأيام المستنصرية إلى
أن توفي المستنصر وجلس على سرير الخلافة ولده أبو أحمد المستعصم فعرف
لهذا البرّاج حق الخدمة ورتبه من تقدم البرّاجين وفي آخر الأمر استجبه في
باطن داره واختصه وقدمه حتى بلغ إلى أنه إذا دخل على الوزير ينهض له
ويخلي له المجلس من جميع الناس إذا كان ابن الدرنوس حاضراً وسبب إخلاء
المجلس الوزيري عند حضور ابن الدرنوس لاجل أنه يمكن أن يكون قد جاء
في مشافهة من عند الخليفة ولقب بنجم الدين الخاص وصار من أخص الناس
بالخليفة وبلغ من منزلته أنه كان يتعرض لصاحب الديوان عند الخليفة وكان
صاحب الديوان يعرض مطالعته ومهامه على يد نجم الدين الخاص وكان يعمده
في كل سنة بمال طائل حتى يحفظ غيبته ويربّه في الحضرة الخليفية . وجرى
بيني وبين جمال الدين علي بن محمد الدستجرداني رحمه الله كلام في معنى ابن
الدرنوس فصوبت أنا رأي المستعصم في الاحسان إليه وقلت له . خدمه
وأثبت عليه حقاً وقد كافأه فلا عيب في هذا وقال جمال الدين ما معناه : إن
تسليطه لمثل ذلك الاحتمق على أعراض الناس وأموالهم وإدخاله في المملكة

حتى كاد أن يولي الوزراء ويعزلهم قبيح من المستعصم دليل على جهله والآن
فإن كان مقصوده الاحسان اليه مكافأة له على سابق خدمته قد كان يجب أن
يكون ذلك بمال يعطاه أو يرفع منزلة لا يختل بسببها أمر في المملكة ولا
يتطرق قدح في عقل الخليفة وكان نظر جمال الدين في هذا المعنى أدق من
نظري والحق في جانبه رحمه الله وكانت هذه المفاوضة بيني وبينه في كتاب
كتبته اليه اقضى الحال فيه لذكر هذه القضية وكتب هو الجواب عنه
وأعاد كتابي اليّ لاني التمسث منه إعادة كتابي والكتابان هما في هذا التاريخ
عندي بخطي وخطه رحمه الله

ومما يليق بالملك الفاضل ويكمل فضله أن يكون عالي الهمة رحيب
الصدر محباً للرئاسة (كذا) معداً لها أسبابها طامح البصر اليها معملاً فكره
في توسيع مملكته وعلو درجته غير مخذل إلى التمتع ولا جانح إلى الترف ولا
منهمك في اللذات . قال بعض حكماء الفرس : هم الناس صغار وهم الملوك
كبار وأبواب الملوك مشغولة بكل شيء عظيم وأبواب السوق مشغولة بأيسر
الاشياء . وليعلم الملك أن الرئاسة عروس مهورها الأنفس

نظر معاوية إلى عسكر أمير المؤمنين علي عليه السلام في صفين فالتفت
إلى عمرو بن العاص وقال : من يطلب عظيماً يخاطر بعظيم . وإذا نظرت
فيما أحاول فإذا الموت في طلب العز أحسن عاقبة من الحياة مع الذل . قال
بعض الشعراء :

هي النفس إن ماتت فقدمت قبلها * كرام وان تسلم فللحدثان
إذا النفس لم تشره إلى طلب العلي * فتلك من الأموات في الحيوان
ومن الغاية في هذا المعنى قول امرئ القيس

ولو أن ما أسعى لأدنى ممشية * كفاني ولم أطلب قليل من المال
 وليكن ما أسعى لمجد مؤئل * وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي
 ومما يكمل فضل الملك أن تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها
 آفة فيكون يختار الرجال اختياراً فاضلاً — كان الناصر آية في الدنيا في
 اختيار الرجال فكان من توصلاته إلى معرفة الرجل أن أشكل عليه حاله أن
 يشيع بين الناس أنه يريد أن يوليه المنصب الفلاني ثم يتأدى في إبرام ذلك
 أياماً فيمتلي البلد بالراجيف لذلك الرجل فيفترق فيه الناس فقوم يصوبون
 ذلك الرأي ويصفون فضائل الرجل وقوم يغلطون الخليفة ويذكرون عيوب
 الرجل . ولاخليفة عيون وأصحاب أخبار لا يؤبه لهم يخاطبون أصناف الناس
 فيكتب أصحاب الأخبار إليه بما الناس فيه من الغليان في ذلك . فيعرف بصحة
 نظره وتميزه أي القولين أرجح وأصوب فإن رجح في نظره تفضيل الرجل
 ولآه وخلع عليه وإن ترجح عنده قول الطاعنين عليه وتبين له نقصه تركه
 وأعرض عنه وفي الجملة فحسن الاختيار أصل عظيم . قال الشاعر
 من كان راعيه ذنباً في حلوبته * فهو الذي نفسه في أمره ظلماً
 يرجو كفايته والغدر عادته * ومن يرد خائناً يستشعر الندما
 ومما يكره للملوك المبالغة في الميل إلى النساء والانهماك في محبتهم
 وقطع الزمان بالخلوة معهن . فأما مشاورتهن في الأمور فجبالة للعجز ومدعاة
 إلى الفساد ومنبهة على ضعف الرجل . اللهم إلا أن تكون مشاورتهن يراد
 بها مخالفتهم كما قال عليه السلام (شاوروهن وخالفوهن) وفي هذا الحديث
 سؤال وجواب . أن قال القائل : إذا كان المقصود مخالفتهم في آرائهم فأبي
 فائدة في الأمر بمشاورتهن وقد كان يكفي أن يقال خالفوهن فيما يشرن به

فالجواب من وجهين أحدهما أن الأمر الأول للإباحة والأمر الثاني للوجوب
يعني إذا شاورتموهن فخالقوهن . والآخر أن الصواب لا يزال في خلاف
آرائهن فإذا أشكل عليكم الصواب فشاوروهن فإذا ملن إلى شيء فاعلموا أن
الصواب في خلافه . وفي هذا تظهر فائدة الأمر بمشاوَرتهن يعني يستدل
على الصواب

وحدث أن عضد الدولة فناحسروبن بويه شغفته امرأة من جواريه حباً
وغلبت عليه فاشتغل بها عن تدبير المملكة حتى ظهر الخلل بها فخلاه وزيره
وقال له : أيها الملك إن هذه الجارية قد شغلتك عن مصالح دولتك حتى لقد
تطرق النقص عليها من عدة جهات وما سبب ذلك إلا اشتغالك عن إصلاح
دولتك بهذه الأمة والصواب أن تتركها وتلتفت إلى إصلاح ما قد فسد من
مملكك . قال فبعد أيام جلس عضد الدولة على مشرف له على دجلة ثم
استدعى بالجارية فحضرت فشاغلها ساعة حتى غفلت عن نفسها ثم دفعها إلى
الدجلة ففرقت وتفرغ خاطره من حبها واشتغل بإصلاح أمور دولته فاستعظم
الناس هذا الفعل من عضد الدولة ونسبوه فيه إلى قوة النفس حيث قويت
نفسه على قتل محبوبته . وأنا أستدل بهذا الفعل على ضعف نفس عضد الدولة
لا على قوتها فإنه لو لم يحس من نفسه بالانفعال العظيم بحبها لما توصل إلى
عدمها ولو تركها حية ثم أعرض عنها لكان ذلك هو الدليل على قوة نفسه .
ولكل صنف من الرعية صنف من السياسة . فالأفاضل سياسون بمكارم
الأخلاق والإرشاد اللطيف . والأوساط سياسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة
والعوام سياسون بالرهبة والزامهم الجدد المستقيم وقسروهم على الحق الصريح .
واعلم أن الملك لرعيته كالطبيب للمريض إن كان من أجه لطيفاً لطف له التدبير

ودس له الادوية المكروهة في الاشياء الطيبة وتحيل عليه بكل ممكن حتى يبلغ غرضه من برئه . وان كان مزاجه غليظاً عاجله بمرّ العلاج وصريره وشديده . ولذلك لا ينبغي للملك ان يهدّد من يكفي في تأديبه الاعراض والتعطيب . وكذلك لا ينبغي ان يحبس من يكفي في تأديبه التهديد . كما انه لا ينبغي ان يضرب من يكفي في تأديبه الحبس ولا ان يقتل بالسيف من يكفي في تأديبه ضرب العصي . وتميز هذه الحالات بعضها عن بعض اعني معرفة المزاج الذي يكفي فيه التهديد ولا يحتاج الى الحبس أو يكفي فيه الحبس ولا يحتاج الى الضرب يحتاج الى لطف حدس وصحة تمييز وصفاء خاطر وبقلة نامة وفطنة كاملة فما أشد ما تشبه الاخلاق وتاتبس الاضرجة والطباع

ويجب على الملك ان ينظر في القتل وازهاق النفس فيعلم أنه الحادث الذي لاحياة للحيوان بعده في الدنيا وانه لو اجتهد أهل الأرض كلهم على اعادته الى الحياة لم يقدروا على ذلك وبحسب هذا الحال يجب ان يكون تأنيبه في ازهاق النفس وهدم الصورة وتأنيبه وترويه حتى تقوم الادلة على وجوب القتل فاذا وجب استعمله على الوضع المعهود من غير تأنيق فيه وتنويع غريب وتمثيل بالمقتول

ورد عن سيد البشر صلوات عليه وسلامه (اياكم والمثلة ولو بالسكاب العقور) ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علي بن أبي طالب عليه السلام فجمع علي ولده وخاصته وقال يا بني عبد المطلب لا تجتمعوا من كل صوب تقولون قتل أمير المؤمنين قتل أمير المؤمنين . لا تمثلوا بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن المثلة ولو بالسكاب العقور وانظروا اذا انامت من ضربتي هذه فاضربو الرجل ضربة لضربة

ومن فوائد التأني والتثبت في القتل الأ من الندم حين لا يجدي الندم .
 كان أفاضل الملوك والخلفاء يستعملون هذه الخطة كثيراً فلا يسرعون الى مثل
 رجل معروف مشهور خوفاً من أن يحتاجوا اليه بعد ذلك فيتعذروا عليهم بل
 كانوا يحبسونه في غوامض دورهم ويشيرون له كل ما يحتاج اليه من أطعمة
 شبيهة وفواكه وثلج وأشربة وفرش وثياب ويحملون اليه كتباً يلحونها ويقطعون
 خبره عن الناس حتى يثبت في نفوس أهله وأصحابه انه قد هلك ثم يستصفي
 أمواله وأموال أصحابه ويستخرج ذخائره وودائعهم ويصير في عداد الموتى فلا
 يزال كذلك حتى تدعو الحاجة اليه فيخرجونه مكرماً وقد تأدب وتهذب .
 من لم يؤدبه والداه * أدبه الليل والنهار

هاهنا صرلة ربما وقع فيها أفاضل الملوك . وهي ان بعض الملوك ربما
 كان معجباً بنفسه محباً لأن ينشر عنه حديث صرامة وشهامة وسياسة قاهرة
 فيستعين بالقتل ويسهل عليه أمره ويبادر اليه وغرضه اثبات الهيبة واقامة السياسة
 من غير التفات الى ما طي ذلك من ازهاق النفس التي حرمت الا بالحق .
 وهذا من أخطر الأمور على الملك والصواب أن لا يزال في نفسه كارهاً للقتل
 صادفاً عنه مهما أمكن حتى تدعوا اليه ضرورة ليس فيها حيلة فحينئذ يقدم عليه
 بنفس قوية وجنان ثابت فان قتل واحد أصلح من تركه حتى يحتاج الى قتل
 خمسة وقتل خمسة خير من تركهم حتى يدب فسادهم حتى تبلغ الحاجة الى قتل
 مائة ومن أجل ذلك قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب)
 وقيل القتل أنفي للقتل . وقال الشاعر

بقتل الدما يا جبارني تحسن الدما * وبالقتل تنجو كل نفس من القتل

وقال المتنبى

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى * حتى يراق على جوانبه الدم
أوصى بعض الحكماء بعض الملوك قال : أيها الملك انما هو سيفك
ودرهمك فزرع بهذا من شكرك واحصد بهذا من كفرك .

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله اني
زيت نخذ الحد مني فأعرض عنه رسول الله والتفت الى يمينه فدار الرجل
حتى حاذاه وأعاد القول فأعرض عنه رسول الله مرة أخرى فساد القول
والتمس أخذ الحد منه فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ازهاق النفس
فقال له كمن يعلمه : ألا تكون قد قبلت أو عانت أو ألمت ولم تفعل . قال لا
يا رسول الله ولكنني زيت فالتفت رسول الله الى أهل الرجل وأصحابه كمن
يعلمهم أيضاً الاعتذار عنه وقال : كأنه متغير في عقله . قالوا يا رسول الله ما نعرفه
الآعاقلاً حينئذ لم تبق للنبي صلى الله عليه وسلم حيلة فأصر باستيفاء الحد
منه والمطامير الفامضة في التخليد فيها ما يقوم مقام القتل مع الأمن من الندم
وأما أصناف العقوبات فيجب على الملك الكامل أن ينظر فيها
أيضاً فكم من عقوبة قد أتت على مهجة المعاقب من غير أن يراد ازهاق
نفسه وأصعب ما فيها التعذيب بالنار وهي عقوبة غير مباركة لان العقوبة بالنار
مختصة بالله عز وجل فلا يجوز للعبد أن يشارك فيها . والنظر في أصناف
العقوبات موكل الى نظر الملك الفاضل وبحسب ما يقتضيه الحال الحاضر
ولكن الاصل السكني فيه أن يكون الملك في نفسه كارهاً لذلك غير متحل
به لا يبادر اليه ولا يقدم عليه الا اذا دعت اليه ضرورة ماسة لا يقضي حق
نفسه ولا يشفي بها غيظ صدره . وهذا مقام صعب لا يرتقي اليه أحد الا من
أخذ التوفيق بيده

قيل ان علياً عليه السلام سرع في بعض حروبه رجلاً ثم قعد على صدره
ليحتز رأسه فبصق ذلك الرجل في وجهه فقام على عليه السلام وتركه . فلما
سئل عن سبب قيامه وتركه قتل الرجل بعد التمكن منه قال : انه لما بصق في
وجهي اغتظت منه فخفت ان قتلته أن يكون للتعصب والفيظ نصيب في قتله
وما كنت أحب أن أقتله الا خالصاً لوجه الله تعالى . قال أبرويز : الملوك
يشتمون بالأفعال لا بالأقوال ويسفهنون بالأيدي لا بالألسن . وقد نظم
شاعر العرب هذا المعنى فقال

وتجهل أيدينا ويحلم رأينا * ونشتم بالأفعال لا بالتكلم
ومما يكره للملك الاتهامك في اللذات وسماع الاغاني وقطع الزمن
بذلك قال الشاعر أبو الفتح البستي
اذا غسدا ملكاً باللهو مشتغلاً * فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس في الميزان هابطة * لما غدا وهو برج اللهو والطرب
وما دخل الخلدان على ملك من طريق اللهو واللعب كما دخل على
جلال الدين بن خوارزمشاه فانه لما هرب من المغول تبعوه فكان اذا رحل
عن بلدة نزلوها بعده واذا أصبح في مكان أمسوا هم في المكان يريدون
قصده وهو مع ذلك مواصل لشرب الخمر عاكف على الدف والزمر لا ينام
الا سكران ولا يصبح الا مخموراً نشواناً . وعسكره في كل يوم يقل وأصره
في كل ساعة يزيد اضطراباً ورأيه في كل لحظة يقل وحده يقل وهو لا يشعر
بذلك حتى قال شاعره مخاطبه

شاهزमी كراب جه * بر جواهد خاست
ورمستی هر زمان جه * بر خواهد خاست

شه مست وجهان خراب * دشمن پس وپش
پیدا است که ازین میان جه * بر خواهد خاست

ثم استرسل ابن طباطبا في بسط الامثال التي من هذا القبيل متوخياً حرية الضمير كما توخينا نحن معه حرية النقل . بيد أننا في كل ما نقلناه عنه نعود الى ضميرنا ووجدنا فوجد الحق في غير بعض ما اوردناه نقلاً عنه . اذ ان حقوق الرعية على الملك تنحصر في رعاية الحقوق ورفع المظالم ودرء المآثم وبسط رواق العدل على الناس والمساواة في اقامة الحدود المنصوصة في الدين الخفيف . وكل ما ذكره ابن طباطبا وان كان لا يخرج عن ذلك الا أنه تبسط مملول لا يرجع اليه في حكم عام أو حق مجهول المعالم .

على أننا لم نكن نلاحظ على القول لاصر في النفس فاننا نعتقد تمام الاعتقاد أن جلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد حائز على كل الصفات المحمودة في آداب الدين وقائم بين الرعية بكل ما تفرضه عليه الشريعة المطهرة والمنهاج المحمدي الشريف . ولم يقم خلاف بين الناس في عدله وحكمته اللقبانية وأخلاقه المرضية . وحيث الامر فوق ما وصفنا من صحة الاميال وسلامة الآمال من شطط وكال اعتدال في السير وعدل النشأة واستعمال وسائل الترضية مع سائر أفراد الامة فلا يتطرق وهم الى اذهان بعضهم في خلوص قلمنا من نزعة الغرض ونزعة التشيع لجانب المولى المحترم الأكبر خليفة هذا العصر السعيد عبد الحميد خات . فاستحق اذاً باحرازه لكل أسباب الاستحقاق للامامة أن يطاع ويحترم ويعزز ويوقر ويفخم ويعظم رضي الله عنه

التنبيه الثاني

﴿ في الحقوق التي لكل فرد على كل فرد ﴾

(وفيه ارشاد الى آداب العشرة العمومية)

اعلم أن كل حق من حقوق الامة بطريق العموم هو حق مقدس لكل فرد من الافراد بطريق الخصوص وأن الامام فرد منها فله على كل فرد ما لكل فرد عليه . ولا قوام للحياة البشرية الا بالعشرة وهي على أنواع كثيرة . ومع كثرة شوبها ووفرة أسبابها أو دعها الله أسراراً من أسرارهِ فحصل بها الاستدلال على سمو مكانته وعظيم قدرته جلّ وعلا . اذ فطر الانسان محتاجاً بجبلته الى غيره وهو سبحانه لا يفتقر الى سواه . جعل الانسان على هذه الفطرة ليقيم حجته البالغة : على أنه النبي المطلق وأن غناه الذاتي برهانه فقر الانسان الذاتي الى العشرة العمرانية

وقد حقق أهل العلم أن الانسان مدني بطبعه . ومعنى كونه مدنياً بطبعه أنه يحتاج لاقامة شعائر العشرة الانسانية والائتناس بسواه . والعشرة العمومية لها نوااميس محكمة الآيات مقررة الفصول والاحكام . ومن أهم أركانها المعاملة ولهذا آداب وأحكام فرضتها الشرائع فلو سلك الافراد فيها سبل الاستقامة والأدب لماشوا عيشة هنيئة مرضية . ولكن قصت سنة الله في الخلق أن يوجد بينهم الشرير والصالح والشاذ والموافق حتى تتوزع أحكام الشرائع على المطيع والمعاصي والقريب والقاصي . وهذه السنة متبادلة

في كل عصر وتحت ظل كل حكومة أو عرش كل دولة
وما من أمة من الأمم إلا ولها آداب في عشرتها وعوائد ملنصة
بفطرتها يتعسر الخروج عنها والافتيات عليها سواء طابقت نوااميس الأديان
أو لم تطابق . والأمة الإسلامية لها شرع بين الآيات محكم الأحكام قويها
شريف البنية وسننه أكمل من العوائد المتأصلة في النفوس وأدل على الخير
منها . فلما أنصف المسلمون فيها لرحل عنهم الشقاء وتخلص العناء وباتوا راضين
في أهواء سعادة وأرغد عيش فقد قال الشاعر

لو أنصف الناس لأستراح القاضي * وبات ككل عن أخيه راض
أما لو لم ينصف الناس ولم يتوخوا صلاح العشرة بأدبها فهم متعترضون
لحوارض العسف لأنهم لو لم يكونوا مستحقين لما يتاح اليهم لما ولى الله
عليهم من يقهرهم ويقسرهم على الاعتدال وصلاح الخواطر والشؤون
هذا وإن العشرة الحقيقية تستدعي توخي الناس للمرشد القوية والمنهج
السليمة إذ بذلك يؤمنون من شرور الاعتداء عليهم من ظالم أو حاكم . وقد قرّر
الحكماء أن الرعية إذا غلبت عليها الأخلاق الفاضلة لقيت من عدل راعيها
ما حملها على الاستزادة من أسباب الحياة الصالحة والمدران المسعود . أما إذا
إذا غلبت عليها الشقوة وتحكمت فيها الشرّة وتأصلت في نفوس أفرادها
الأخلاق الشاذة لقيت من راعيها ولو كان عادلاً في نفسه ما يحملها على
اليأس والقنوط من سعادة المستقبل . لأن الراعي الحكيم يداوي أمراض
أمتة بالملاج الملائم لأخلاقها فلا يلام لو عسف وظلم في أمة بات سوء الخلق
رائدها والشذوذ دثار باطنها والخروج والافتيات على النظام والدستور
شعارها الظاهر . فانه بالظلم يربها ويحول أخلاقها إلى الذل والاستكانة

الممهدة لصيرورتها في حالة تستوجب الرحمة بها والاشفاق بأعقابها . وحينئذ لو عدل فيها الراعي وبسط عليها جناح الرحمة والحنان لا جناح عليه ولا أثم فيجب على الأفراد أن يتبادلوا فيما بينهم آداب العشرة وأحكام المدنية الصحيحة . بأن ينبذوا من بينهم أسباب الشطط التي تحمل الملك غالباً على إساءتهم وأن يمثلوا أمام أعينهم آداب الدين وأحكام الشريعة وفصول العشرة باجمل الأخلاق وأكمل أسباب الاتحاد والوثام وأجل وسائل الاحترام المتبادل بأن يوقر الصغير كبير قومه ويرحم الكبير الصغير وينظر الوزير في المصالح نظر أمانة ورزانة ولا يسمى الأرصاد والأعوان بالأخوان وأن تهمل الوشاية والسعاية والنواية وفواعل العماية . أما إذا أساء الناس التعامل فيما بينهم وعكفوا على مجاهرة بعضهم بعضاً بالمدوان وبيتوا في ضمايرهم سوءاً لأنفسهم وتمسكوا بأهداب الشقاق والشقاء وعتوا وخالفوا نواميس التربية ولم يراع كبرائهم وأمرائهم واجباتهم وآدابهم نحو العامة فلا إصلاح يرجى ولا أدب يسود ولا فلاح ينتظر . خصوصاً إذا استأثر الكبراء بأسباب الرفه والنعيم ولم يشركوا العامة معهم في نوال أيادي الخليفة وآلائه المغنية عن طرق أبواب التحايل بالذرائع الممقوتة لا باستعمال الوسائل والمواهب المكسوبة . وقد روي عن الوزير مؤيد الدين محمد بن الملقمي أنه كان ينشد دائماً هذين البيتين :

كيف يرجى الإصلاح من أمر قوم * ضيعوا الحزم فيه أي ضياع
فطاع وليس فيه سداد * وسديد المقال غير مطاع
وفي هذا المقام يقول ابن طباطبا الذي اعتمدناه في نقولنا بعض الآداب
من كتابه الفخري *

ولا ينبغي للرجل الكامل إلا أن يكون في الغاية القصوى من طلب الرئاسة أو في الغاية القصوى من تركها .

إذا ما لم تكن ملسكاً مطاعاً * فكن عبداً خالقه مطيعاً
وان لم تملك الدنيا جميعاً * كما تهواه فاتركها جميعاً

وهاهنا موضع حكاية تشتمل على أدوات الرئاسة : قيل ورد أبو طالب الجراحى الكاتب ولم يكن في عصره أكتب ولا أفضل منه الى الري قاصداً حضرة ابن العميد فلم يجد عنده قبولاً ولا رأي عنده ما يحب فقارقه وقصد اذريجان وسار الى ملكها وكان فاضلاً ايماً فلما اختبره وعرف فضله سأله المقام عنده وأفضل عليه فأقام لديه على أفضل حال فكتب الى ابن العميد يوبخه على جهل حقه وتضييعه لمثله فن جملة الكتاب : حدثني بأي شيء تحتاج اذا قيل لك لم سميت الرئيس ؟ . واذا قيل لك ما الرئاسة ؟ . أتدري ما الرئاسة ؟ . الرئاسة أن يكون باب الرئيس مصوناً في وقت الصون ومفتوحاً في وقت الفتح وأن يكون مجلسه عامراً بأفاضل الناس وخيره واصلاً الى كل واحد واحسانه فائضاً ووجهه مبسوطاً وخادمه مؤدباً وحاجبه كريماً طلقاً وبوابه لطيفاً ودرهمه مبذولاً وطعامه مأكولاً وجاهه معرضاً وتذكرته مسودة بالصلات والجوائز والصدقات وأما أنت فبإبك لا يزال مقفلاً ومجلسك خالياً وخيرك مقنوطاً منه واحسانك غير مرجو وخادمك مذموم وحاجبك هرام وبوابك شرس الاخلاق ودرهمك فى العيوق وتذكرتك محشوة بالقبض على فلان واستئصال فلان ونفى فلان . فبالله عليك هل عندك غير هذا ؟ . ولولا أن أكون قد دست بساطك وأكات من طعامك لأشمت هذه الرقعة ولكن أرعى لك حق ما ذكرت فلا يعلم بها إلا الله

وأنت . ووالله ثم والله ثم والله ما لها عندي نسخة ولا رأها مخلوق غيري
ولا علم بها . فأبطلها أنت اذا وقفت عليها وأعدمها والسلام على من اتبع
الهدى (اه)

والذي يقرأ هذه النبذة المنقولة يندهش من حرية الضمير التي بلغها
الكتاب في تلك الازمنة الغابرة مع أن جماعة الغربيين يزعمون أنها بنت
عوائدهم وحليلة آدابهم وبرهان فضيلتهم وأنا اكتسبناها منهم . وبالجمله فان
حقوق الافراد المتبادلة معلومة ومبسوطة في غير هذا الكتاب ومحورها
التي تدور على رحاه هي الاخلاق الكريمة والتربية الصحيحة القويمة . فلو
أصلح الناس العشرة فيما بينهم لنالوا كل خير في ظل السلطان الذي ولي أمرهم
أيما كان وفي أي عصر يكون . والله وحده نسأل أن يلهنا الصواب
والحكمة ويحفظ أمتنا من كل ما يضر بمصلحتها من أخلاق الشطط والشذوذ
وكل فعل منبوذ

— الفصل الرابع —

﴿ في حقوق الامة العامة ﴾

اعلم أن حقوق الامة العامة هي الاستقلال بالحماية والرعاية والوقاية
والاستئصال من أيادي الملك البيضاء والصوت المصلحي اذا أعلن انتخاب أو
عقدت مشاورة عامة وارشاد الخليفة الى ما يراه عقلاؤها ويجمع عليه عامتها
فينظر فيه بنظر الحكمة والرحمة وأن لا يبعث فيهم روح القنوط من نوال

ما يبتغون مع تعهد راحتهم ومنحهم أسباب سعادتهم ورفاهيتهم وحملهم بالجميل على شكره والرضاء عنه والدعاء بتأييده ونصره .

ومن حقوق الامة على امامها أن يرويه بحجازيا بالاحسان أهل الاحسان وبالإساءة أهلها لتكون دائما راجية لبره خاتمة من سطوته وقد قال النابغة للنعمان بن المنذر

ومن أطاعك فأنفه بطاعته * كما أطاعك وادله الى الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة * تنهي الظلوم ولا تقعد على ضد

وايست حقوق الامة العمومية أشياء خصيصة بالافراد بل هي اعتماد للمصلحة من حيث هي مصلحة . ويرى المليك المكاشف لأسرار الأعداء والعالم بأهل الاستحقاق وغيرهم مالا يراه العامة . فما عليه الا ان يتقي الله ويقسط في الرعية ويقيم الحد ويبطل البدعة ويمحو الضلالة ويضرب على أيدي المفسدين ويزيل أسباب الفساد من بين العباد . وقد قدمنا في الفصل الثالث ما يمكن ان يكون أنموذجا لفهم أسرار هذا الفصل من هذا الباب

جاء في كتاب النخري أيضا ما يأتي بعد كلام طويل

وقالت الفرس فساد المملكة واستجراء الرعية وخراب البلاد بإبطال الوعد والوعيد . ولا يليق بالملك الفاضل ان يكون افتخاره بزخارف الملك مما حوته يده واشتملت عليه خزائنه من نقاش الذخائر وطرائف المقتنيات فان تلك ترهات لا حقائق لها ولا معرج لفاضل عليها . وكذلك لا ينبغي له أن يكون فخره بالآباء والاجداد وإنما ينبغي أن يكون فخره بالفضائل التي حصلها أو الأخلق التي كملها والآداب التي استفادها والادوات التي استجادها افتخر ببعض الأغنياء عند بعض الحكماء بالآباء والأجداد وبزخارف

المال المستزاد فقال له ذلك الحكيم : ان كان في هذه الاشياء نخر فينبغي ان يكون الفخر لها لالك وان كان آباؤك كما ذكرت اشرفاً فالفخر لهم لالك : قال المسجدي ، كان بعض الحكماء اذا وصف عندد انسان يقول : أهو عصاميٌّ أم عظاميٌّ ؟. فان قيل له : عصاميٌّ : نبل في عينه وان قيل هو عظاميٌّ لم يكثر به . وقوله (عصاميٌّ) اشارة الى قول القائل
نفس عصام سوت عصاما * وعلمته الكر والاقداما
* وصيرته ملكاً هماماً *

يعني انه بعقله وبنفسه صار رئيساً وقوله (عظاميٌّ) يعني أنه يفتخر بالآباء والأجداد والعظام النخرة

قال المسجدي لبعض أصحاب ابن العميد ذي الكفایتين . كيف رأيت الوفير . فقال : رأيت يابس العود . ذميم المهود . سيئ الظن بالمعبود . فقال المسجدي . أما رأيت تلك الأئمة والصيت والموكب والتجمل الظاهر والدار الجليلة والفرش السني والحاشية الجميلة . فقال ذلك الرجل : الدولة غير السوداء والسلطنة غير الكرم . والحظ غير المجد . أين الزوار والمتجمعون . وأين الآملون والشاكرون . وأين الواصفون الصادقون . وأين المنصرفون الراضون . وأين الهبات . وأين التفضلات . وأين الخلع والتشريفات . وأين الهدايا وأين الضيافات . هيات هيات . لا تحيي الرئاسة بالترهات . ولا يحصل الشرف الا بالخدعيات . أما سمعت قول الشاعر

أبا جعفر ليس فضل التقى * اذا راح في فرط إعجابه
ولا في فراهة برذونه * ولا في ملاحاة أثوابه
ولكنه في النعال الجمية * لوالكرم الأشرف الناه

ولابن طباطبا هذا الذي نقل عنه في هذا المعنى
 ليس فضل الفتى على الناس ثو * ب ودار وبقرة وجام
 انما الفضل في تفقد جار * ونسيب وصاحب وغلان
 والى هنا نختتم الفصل الثالث . وفي اعتقادنا انه جمع ما يطرأ العقول من الفضائل
 لا الفضول مع التحفظ في النقول . فالافراد جميعاً لهم رابطة ولواء عمومية
 تربطهم بعرش امامهم فلا يعد الفرد الواحد فرداً أمة الا اذا عرف عرش
 الامام ومال بقلبه اليه . وجنح بالعواطف عليه . ورجا الله تأييده . وحيث ذلك
 من شرائط العشرة العمومية والأدب العصري في كل أمة فليعلم المسلمون
 كافة بسائر أنحاء المسكونة الأرضية : أن عرش الامارة الاسلامية قد استوى
 عليه امام المؤمنين وخليفة الرسول الأمين سيدنا وسلطاننا الغازي في سبيل
 الله وتأييد دينه السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) منذ ربع قرن . ولولا أن
 أراد الله للأمة حفظاً من عاديات الدهر لما هيا لها اماماً عادلاً خالداً في
 عرشه متوحد العقيدة منصرف القواد عن اميال الأشرار منعكفاً على
 ما يرضي ربه وينفع أمتة . فليمش (عبد الحميد) اماماً لنا . وليدم ظل رعايته
 وارفاً علينا . وليكن ولاؤه خير ولواء . والوفاء بحقوقه خلة جميع الافراد . آمين

— نبذة ختامية في الحقوق العمومية —

فكما أن حقوق الأمة العامة لا تنصرف عن معنى حقوق الافراد الا
 في أمور السياسة التي ترتبط باحوال الشعوب والممالك من جهة البقاء
 الوجودي والدوام العمراني كذلك الامام مطالب لامته بحسن سياسة مملكته
 وحزمه فيه وفتح ابواب أفكاره للتفسيح والتصحيح والاحتياط في معاملة

الممالك الأخرى وتربية روح النشأة الجهادية . واضفاء الاردية الواقية من نفاذ المطامع الاجنبية في داخلية البلاد .

وقد تفنن ملوك الغابرين في وقاية الممالك والولايات بأساليب التجارب والتحاك به . ولم يهتم ملك من الملوك بشؤون الافراد قبل اهتمامه بتحصين البلاد وحفظ سلامة العباد . خصوصاً في مثل هذا العصر المهدد بالقر والقسر من العدو الغاصب المفاجئ بالافتيات على المناصب . ولا يذهب عن نهى العقلاء ما استحقه ا خلفاء في بطون التواريخ . فان الزريين حفظوا من آثار سلفائنا ما انتفعوا به وسادوا وتمكنوا بسببه من بسط النفوذ على معظم البسيطة ونحن خلون من الفكر لا نهتبل الا في التقاطع والتدابير والتقاءس والتخاذل . وقد قال حكماء الأولين : مبادي ثلاثي الامم تخاذل عقلائها : فما بالنا لم نربأ بديننا فنحميه من عدوان الطامعين فيه .

أروني ياملوك الاسلام وأمرء الانام ماذا جنيتم من وراء تفرؤكم في السياسة والمصلحة شيعاً .؟ لم تلتفتوا جميعاً حول عرش الامامة الاسلامية الكبرى وتصاحفوا أمير المؤمنين العثماني مصافحة عهد وولاء ووفاء بحقوق البيعة الصحيحة الشرعية المرجحة لاستبقائكم مجد الأولين من آباءكم .؟ لكم أيها الأمرء على جلالة الإمام حقوق حجة هي أن ينظر في أموركم بعين التسوية والاحترام لا لشخصكم الكرام وأن يرشدكم الى طريق الوقاية من أعدائكم وأن يجعلكم أمناء سره وحفظاء عهده وأمرء بلاده واخوان ولائه وأعوان عرشه . وعليكم من الحقوق ما بسطنا في هذا الكتاب من وجوب قيامكم لجلالته بآداب الولاء ورعايتكم لحقوق الاسترعاء فيما جميعاً واتحدوا وارتبطوا واعلموا ان القوة الحقيقية انما هي الاتحاد الشامل . للنشيط والخامل

من سائر أفراد الأمم الإسلامية . يهؤلاء تعالوا الى كلمة الحق والولاء لا تغرّ نكم
ظواهر الخداع من أوروبا التي اغتصبت مجد آبائكم وشرف استقلالكم وحسن
اختياركم في أموركم

هذا وقت الاتحاد يا أصراء الإسلام فانتبهوا من هذه الغفلة التي
أطمعت كل دولة غربية في بلاد كل أمير متكم فبادروا بالارتباط بعرش
الخلافة العامة لتستوجبوا نظر جلالة الخليفة اليكم بعين الحقوق المكلف بها
لأئمة الراضخة الى ولائه .

ثم وهنالك أسباب وجوب الحقوق العامة لكل أمة . وهي ثلاثة أن تحفظ
الامة فيما بينها عهود الوفاء بالحقوق المخصصة بالخليفة . وأن يسود الاحترام
العام لشعائر الدين والرضوخ التام لأوامر الامام ونبد وسائل التعدي على
الواجبات بالخروج والشذوذ . وأن يتحلي افراد الامة بالصدق والامانة
فلا ينقلون أسرار الخلافة الى أعدائها بل يكونون أحرص من الخليفة عليها
اذ يهمهم أن تكون بلادهم وحقوقهم بعيدة عن مطامع الاغيار وأعداء الدار
وسياسة الملك من ادعى الدواعي الى حسن النظر في العبر . وقد قسموا
السياسة الى خمسة أنواع نقلها ابن طباطبا عن الحكماء ونحن نورد هنا عنه
وهي .

السياسات خمسة أنواع : سياسة المنزل والقرية والمدينة والجيش
والملك . فمن حسنت سياسته في منزله حسنت سياسته في قريته . ومن
حسنت سياسته في قريته حسنت سياسته في مدينته . ومن حسنت سياسته
في مدينته حسنت سياسته للجيش . ومن حسنت سياسته للجيش حسنت
سياسته للملك . وأنا لا أرى هذا لازماً . فكم من عامي حسن السياسة بمنزله

ليس له قوة سياسة الامور الكبار ، وكم من ملك حسن السياسة لمملكته
 ليس يحسن سياسة منزله ، والمملكة تحرس بالسيف وتدبر بالقلم . واختلفوا
 في السيف والقلم أيهما أفضل وأولى بالتقديم ، فقوم يرون أن يكون القلم غالبا
 للسيف واحتجوا على مذهبهم بأن السيف يحفظ القلم فهو يجرى معه مجرى
 الحارس والخادم . وقوم يرون أن يكون السيف هو الغالب واحتجوا بأن القلم
 يخدم السيف لأنه يحصل لأصحاب السيوف أرزاقهم فهو كالخادم له . وقوم
 قالوا : هما سواء ولا غنى لأحدهما على الآخر .

قالوا : المملكة تخبب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس
 بالشجاعة وتساس بالرئاسة . وقالوا : الشجاعة لصاحب الدولة . ومن وصايا
 الحكماء : اجعل قتال عدوك آخر حيلتك وانتهز الفرصة وقت إمكانها .
 وكل الامور الى أكفائها ومن ركب ظهر العجلة لم يأمن الكبوة ومن
 عادى من لا طاقة له به فالرأي له مداراة وملاطفته والتضرع اليه حتى يخلص
 من شره ببعض وجوه الخلاص . قالوا : وينبغي للملك ملاطفة أعدائه
 واخوان أعدائه فبدوام الاحسان اليهم تزول عداوتهم وان أصر وأعلى عداوته
 يمد احسانه كانوا قد بغوا عليه ومن بغى عليه لينصرنه الله

وعظ بعض الحكماء بعض أفاضل الملوكة فقال : الدنيا دول فما كان
 فيها لك أتاك على ضعفك وما كان فيها عليك لم تدفعه بقوتك . والشر
 مخوف ولا يخافه الا العاقل والخير مرجو يطالبه كل أحد وطالما تأتى الخير
 من ناحية الشر وتأتى الشر من جهة الخير وهذا مأخوذ من قوله تعالى
 (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر
 لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

وهنا موضع حكاية : تقدم نور الدين صاحب الشام الى أسد الدين شيركوه عمّ صلاح الدين يوسف بن أيوب بالتوجه الى مصر لأمّر نديه اليه فقال أسد الدين شيركوه : يا مولانا ما أتمكن من هذا دون أن يجيء صحتي يوسف بن أخي يعني صلاح الدين : قال فتقدم نور الدين الى صلاح الدين بالتوجه صحبة عمه أسد الدين شيركوه فاستغفاه صلاح الدين من التوجه وقال ليس لي استعداد . فتقدم نور الدين بأزاحة علله وجزم عليه في التوجه قال صلاح الدين : فخرجت مع عمي كارهاً وأنا كمن يقاد الى المذبح فلما وصلنا مصر وأقمنا بها مدة كان مني ما كان من تملك مصر . ثم ملكها صلاح الدين وعظمت مملكته وملك الشام بعدها — ثم ذكر نبأ هذا منفصلاً مشروحاً عند الكلام على الدولة الصلاحية كما شاء الله تعالى ووفق قالوا : العدوّ عدوّان . عدوّ ظلمك وعدوّ ظلمته . فأما العدوّ الذي ظلمته فلا تتق اليه واحترز منه مهما أمكنك . وأما العدوّ الذي ظلمك فلا تخفه كل الخوف فانه ربما استحي من ظلمك وندم فرجع الى ما تحبّ منه وان أصرّ على ظلمك انتصف لك منه من يلجأ اليه المظلومون . وربما نفع العدوّ وضرّ الصديق . قال الاسكندر : انتفعت بأعدائي أكثر مما انتفعت بأصدقائي لان أعدائي كانوا يبيرونني ويكشفون لي عيوبي وينبهوني بذلك على الخطاء فأستدركه . وكان أصدقائي يزنون لي الخطأ ويشجعوني عليه قال الشاعر وما ساءني إلاّ الذين عرفتهم * جزى الله خيراً كل من لست أعرف وقيل للاسكندر بيم نلت هذه المملكة العظيمة على حداثة السن .؟ . قال باستمالة الأعداء وتصييرهم بالبرّ والاحسان أصدقاء . وتعاهد الأصدقاء بأعظم الاحسان وأبلغ الأكرام . قال بعض الحكماء : لا يردّ بأس الله

القاهر مثل التذلل والخضوع كما أن النبات الرطب يسلم من الريح العاصفة
بليته لأنه يميل معها كيف مالت .

وما طُحج الملوكة بشيء أشد من طُحجهم بالصيد والقنص وهو الشيء الذي
طالما اتفقت فيه النكت العجيبة والطرق الغريبة . وكان المعتصم المُلحج الناس
به : بنى في أرض دجلة حائطاً طوله فراسخ كثيرة وكان إذا ضرب حلقة
يضايقونها ولا يزالون يحدون الصيد حتى يدخلونه وراء ذلك الحائط فيصير
بين الحائط وبين دجلة فلا يكون للصيد مجال فإذا انحصر في ذلك الموضع
دخله هو وولده وأقاربه وخواص حاشيته وتأنقوا وتفرجوا فقتلوا ما قتلوا
وأطلقوا الباقي . وقيل إن المعتصم دوغ عدة من حمر الوحش وأطلقها لانه
بلغه أن أعمارها طويلة

وها هنا موضع حكاية طريفة عجيبة : حدثني صفي الدين عبد المؤمن
ابن فاخر الأرسوي قال حدثني مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير قال :
خرجنا مرة في خدمة الخليفة المستعصم إلى الصيد وضربنا حلقة قريباً
من الجلمة وهي قرية بين بغداد والحلة ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارس
منا يصيد الحيوان بيده . فخرج في جملة حمر الوحش حمار كبير الجثة عليه
وسم فقرأناه وإذا هو وسم المعتصم . قال فلما رآه المستعصم وسمه بوسمه
وأطلقه وكان بين المعتصم وبين المستعصم حدود خمس مائة سنة .

ومن ظريف ما سمعت من أسر الصيد ما حدثني به رجل من أهل
الأدب ببغداد قال : حدثني محمد بن صالح البازياري . قال تصيدنا بين يدي
السلطان آفاقاً يرمأ فطار ونحن بين يديه ثلاثة كراكي على سمت مستقيم
فأطلقنا شاهيناً فلا وانحط على الأعلى من الكراكي فطعمه فوقع على

الثاني دكسره ثم وقعا على الثالث فكسراه ووقعت الثلاثة بين يدي السلطان .
قال : فتعجب من ذلك غاية العجب وخلق علينا جميعاً . وقال الصاحب علاء
الدين في جهان كشاي : ان حلقة جنكزخان كان أمدها مسير ثلاثة شهور .
وما أرى هذا إلا مستبعداً .

وما لمج الملوكة بالصيد هذا اللعج الشديد ولا كلنوا به هذا الكلف
العظيم وأطلقوا للبازيارية الاموال الجلية وأقطعهم الاقطاعات السنية وسهلوا
عليهم حجابهم وقطوا معظم زمانهم فيه باطلاً ولاعبثاً فان القنص يشتمل
على فوائد كثيرة جليلة النفع . منها وهو الغرض الأشراف منه تمرين المساكين
على الركض وتويعدهم على الأروسية وادمانهم للرمي بالنشاب والضرب
بالسيف والديوس واعتياد القتل والسفك وتقليل المبالاة لاراقة الدماء
وغضب النفوس . ومنها اختبار الخيول ومعرفة سببها وصبرها . ومنها أن
حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج . ومنها فضل
لم الصيد على باقي اللحوم لانه بقلقه من الجوارح تروح حرارته الغريزية فتزيد
في حرارة الانسان . قال بعض الحكماء : وخير اللحم ما أقلقه الجارح اقلقاء .
ومنها الطرف العجيبة التي تتفق فيه وقد تقدم ذكر شيء منها . وكان يزيد
ابن معاوية أشد الناس كلفاً لا يزال لاهياً به وكان يلبس كلاب الصيد
الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبداً يخدمه
قيل ان عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار
جناية وجعلها في خزن بيت المال فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد
دمشق ليشتكي حاله الى يزيد . وكانت دمشق في تلك الايام فيها سيرير
الملاك . فلما وصل الرجل الى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فقص فوه أنه في

الصيد فكره أن يدخل دمشق وليس يزيد حاضراً فيها . فضرب خيمته ظاهر
المدينة وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد . فبينما هو في بعض الأيام جالس
في خيمته لم يشعر إلا بكبابة قد دخلت عليه الخيمة وفي قوائمها الأساور
الذهب وعليها جلّ يساوى مبلغاً كثيراً وقد بلغ منها العطش والتعب حتى
كادت تموت تعباً وعطشاً . فعلم أنها ليزيد وأنها قد شددت منه فقام إليها
وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس
جميل وعليه زي الملوك وقد علتته غبرة فقام إليه وسلم عليه فقال له : أرايت
كلبة عابرة بهذا الموضع . فقال نعم يا مولانا ها هي في الخيمة قد شربت ماء
واستراحت وقد كانت لما جاءت الى هاهنا جاءت على غاية من العطش
والتعب . فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر الى الكلبة وقد
استراحت فغضب فجذب بحبلها ليخرج . فشكى الرجل اليه حاله وعرفه ما أخذ منه
عبيد الله بن يزيد . فطلب دواة وكتب له بردماله وخلعة سنية وأخذ الكلبة
وخرج فردّ الرجل من ساعته الى الكوفة ولم يدخل دمشق .

وكان السلطان مسعود يبالغ في ذلك أيضاً ويلبس الكلاب الجلال
الاطلس الموشاة ويسوّرها بالأساور وكان يقلل في بعض الاوقات الالتفات
الى أمين الدولة ابن التلميذ الطيب النصرائي وكان فاضلاً ظريفاً فقال

من كان يلبس كلبه * وشياً ويقنع لي بجدي

فالكلب خيرٌ عنده * مني وخيرٌ منه عندي

الح . الح . وهذا الذي أعجب به المؤرخون مثل ابن طباطبا من أمر
الصيد وحكمته التي التمسوها له غير منظور اليه في عصرنا الجيدى فان
معدات الحرب والسكفاح الجهنمية نسخت تلك الرماح والسيوف من

أذهان الناس وصيرتها كألعوية الاطفال لا يهتم بها الرجال وان التمرينات العسكرية التي تجري بين الجيوش الشاهانية لو راها مثل الخلفاء والسلاطين الفارين لذهلوا واندھشوا ولكن لكل عصر عوائد وقواعد وتقاليد .
والحركة الجناستيكية التي ابتدعها النريون نسخت أيضاً تلك الحركة التي توخاها السالفون في صيدهم وقتصهم . فلنضرب عن ذلك ونذكر هنا أن عناية السالفين بالكلاب الى الحد الذي بسطه ابن طباطبا تظهر منها الحكمة في كون الكلاب في دار السعادة غير مهانة بل يمتنى العثمانيون بأمرها ويقتنونها بالاقوات ويمنحونها جليل الصلات ثم واننا نكتفي بما أوردنا في هذه النيزة الختامية والله الموفق

﴿ الفصل الخامس ﴾

﴿ في التوفيق بين الحقوق وتوحيدها ﴾

ان الذي يفهم كل ما قدمناه ويعقله ويدرك ما نرمي اليه فيه تين له أن الحقوق المتبادلة متفقة في مراجعها ومصادرها متحدة اتحاداً لا يقبل الانفكاك ولا التبرؤم . فان الأصل البشري الذي ميزه الدين بميزات الحكمة والأخلاق ليس متعددًا في مادته أو مختلفًا في قضيته وانما اختلفت آثار فروعه في أنحاء الكون وربوعه . والحق سبحانه وتعالى اتخذ الحضرة الآدمية مظهرًا لأسرار خلافته في عوالمه ومنحها التسخير لكوائن الوجود بعد أن أهبطها عن عروش التجرؤم من اولداعي الى أرض التعامل التي تنبت فيها دلائل

وجود الحق ومظاهر آلائه واقداره . وختم سبحانه الروابط الشريفة بين الحق والخلق بمظهر الرسالة المحمدية الشريفة الذي عنه امتدت جداول الاستبقاء لنظام الاسترعاء في حوافظ الولاء والوفاء . وقام بالأمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم جميع الخلفاء وشادوا صروح مجد الدين على قواعد الحكمة والتخيم .

ومن هذا يظهر السر المكنون في السرائر التي قدسها الأولون ويستبين وجه الاتحاد الأساسي في الحقوق العمومية . وحيث إننا بسطنا آداب الولاء وحقوق الخليفة وفصلنا ذلك تفصيلاً جمع فأوعى من أسباب ونتائج الاجتماع البشري والعشرة الانسانية وأقننا الأدلة والبراهين على أن التمسك بأهداب الأدب الشعبي خير ما يتوخاه المقلاء الذين يدركون معنى الحياة ويفقهون أسرار الواجبات الحقة الشرعية . وأتينا بذكر ما تضمنته الشرائع على اختلافها ما بين وضعية وسماوية في هذا المعنى . فقد لاح لنا أن نجمع الحقوق المتبادلة وننظمها في سمط الوحدة الأساسية ونوفق بينها لينبعث في الناس الشعور الشريف القاضي عليهم بأن يعتمدوا وجوه السعادة من وجدانهم الصحيح بباعث الاتحاد والارتباط القوميين

على أن كل ممن نظره في الفصول السالفة لا يعزب عليه الاستنتاج الذي نستنتجه الآن ونرويه ليني النشأة العثمانية الكريمة . فتي عرف كل منا أن حقوق الخلافة هي حقوقه وواجبات الامامة الشرعية هي واجباته . دلائل حياة عرشها هي دلائل حياته وأحكام بقائها هي أحكام بقائه وعثرته فلا يجهل بعد ذلك ما يجب عليه من التشعر بخير شعار والتظاهر باسمي وأشرف مظاهر . خصوصاً في هذا العصر الذي تناوؤنا فيه أوربا بالمدوان .

والمرش العثماني الذي هو أسُّ الفضائل ودعامة المسائل ومرجع الأمور وموئل الكمالات يحميننا اذا النفننا بقلوبنا حوله وناديتا ربنا بأن يديم مجده ويحفظ جاهه وحوله .

أجل ان كل مسلم يمثل كل المسلمين وجامعتهم وآداب الاسلام وأخلاقه . فحقوق الدين هي حقوق الأفراد في الواقع . لأن الوفاء بها مدعاة الى السؤدد والمجد . وكلاهما من مرقيات الامم وهما السبيلان الأولان في تربية النشأة الوطنية والقومية لانهما يذكيان الشعور في الافراد ويبعثان روح الشهامة والشرف وهذان ضالتا الحياة المنشودتين لهما من هذه الدار المتقلبة في اثواب الامكان الالهي . وحيث كانت الغاية من الحقوق والوفاء بها استبقاء المجد والسؤدد وبعث روح الشهامة والشرف وهذه الغاية كما هي مقصودة للدين والشارع والوازع كذلك هي المقصودة للأفراد الأحياء أهل الضمائر الصحيحة فلا مشاحة في التوفيق والتوحيد بين الاخلاق والموائد والحقوق

بقي علينا أن نستفيض الحديث في الذود عن حقوق البررة الاخيار المصطفين الكرام الذين أديناهم جلالة المتبوع الاعظم من حضرته وقربهم الى سدة وحباهم وأسداهم وغمرهم بآلائه واحساناته الباهرة . فان هؤلاء يجب علينا أن نحترمهم لاحترام جلالة مولانا أمير المؤمنين لهم ولانهم في الواقع من أخلص الاتباع وأخص الاصحاب وأوفى الاصدقاء وأكمل الدعاة لتأييد عرش الخلافة الحميدية المؤيدة . ومن هذه حالتهم يجب حفظ اللسان من الوقوع فيهم . لما ورد في الشرع القويم من النهي عن الطعن في العلماء والامراء والعظماء لانه يعود السفلة على السفاهة ويوصل في نفوسهم أخلاق الفساد

والعناد للمقامات المحترمة المقدسة

وفراسة مولانا أمير المؤمنين كافية في تمجيد وتقديس احوال المخلصين
السادة الشاهانية . بل يأمرنا الشرع الاسلامي بأن نحفظ على صرامي أقطار
الامام العام . لأنها تعتبر احكاماً بعد الاختيار . والافتيات عليها يقدح في الولاء
ويعس بحقوق الاسترعاء ويقضي على آداب الوفاء بالتلاشي وهي من ألزم
الأمر لحفظ كيان الحياء والحياة العمرانية في العوالم الاسلامية

قدمنا أن أفاضل الرجال لا يليق بهم إلا أن يكونوا مع الملوك
والامراء . وعلى ذلك درج جلالة مولانا أمير المؤمنين الخليفة الاعظم
أفندينا (عبد الحميد خان) فاختار أفاضل الرجال وأوفياءهم وأخلصهم لمصلحة
الدين والامة وأغدق عليهم آلاءه ونعمه فأصبحوا موضوع عنايته واحترامه
واكرامه واحسانه . وفي مقدمة الذين اصطفاهم امامنا الاعظم في هذا
العصر الحميدى المنير سماحة مولانا صدر الصدور العظام . وقدوة المحققين
الفخام . وعمدة أهل الوفاء الكرام . فرع الشجرة الهاشمية وغصن الدوحة
المحمدية . الحبيب النسيب السيد محمد أبو الهدى أفندي الصيادي الرفاعي
الذي أصبح ذكره في كل ملاء من أملاء المسلمين يوضع شذاه الذكي . فان
هذا السيد الكريم من أخلص الناس لمولاه أمير المؤمنين وأحسنهم ولأه
جلالاته وأقدسهم سريرة وأزكاهم أصلاً وأعرقهم فرعاً وأكملهم أدباً وفضلاً
وأعرفهم بواجبات ولأه وآداب استرعائه . ولذلك كثر أخصامه في أيامه
وعظم سواد القالين القاذعين لمقامه . ولكنه ببركة صلته بربه رب العالمين
نجح ولم يصله أذى من وشائهم وسعائهم . ومن حسن فراسة جلالة مولانا
الخليفة أنه لما اصطفى هذا السيد الشريف الكريم أذاع أمره في أهل

الاستانة فظهر القوم منقسمين فيه . منهم الناقذ والقاذح في فضله وأدبه . ومنهم
الفرح المسرور المنشرح صدره من نوال مثل سماحة السيد رضوان مولاه
وسيده الذي حياه الفضل وأغدق عليه النعم

ولا مندوحة لنا عن بسط ما لرجال الولاء الثماني الأكيذ في نفوس
الناس من المكانة السامية والمقام الأرفع اذ ذلك يرشد القوم الى حسن
الأدب مع الله والرسول والخليفة . وليس فيه منزع لأن يتوهم مريض
القلب والصدر أن لنا غرضاً دفيناً في النفس . فأما النظار الفخام والوزراء
السكرام فأنهم مثال الشرف والعزيمة والصدق والاخلاص للعرش الحميدي
المقدس . وكلهم يكن في فؤاده أسباب الاحترام الكافي لأن يعد به في
صفوف أخلص الناس لمولاهم . خصوصاً ما أظهره أبان الحرب اليونانية من
سداد الرأي وتأييد مبدء السياسة الحميدية الحكيمية

نؤحاول أبغ الكتاب أن يصغوا مالامة العثمانية من الفضائل والمزايا
لأعيانهم ادراك ما عليه الأفراد العظام الذين عاونوا أمير المؤمنين في أمور
الملك وساعدوه في تدبير شؤون الحكومة ونفذوا أوامره وسددوا آراءه
وبسطوا للأمة حكمته وأدخلوا آيات سياسته الباهرة في فنون التمرين والتأليم
والمحددون في هذه الدولة العظيمة ليس لهم نصيب من العقل والأدب
والشرف . لأن التاريخ الذي ورثناه عن الأمم الخالية لم يترك شاردة ولا
واردة من مزايا الملوك السالفين والخلفاء النابرين . واذا أردنا مضاهاة الآثار
بالآثار والمزايا بالمزايا والكمالات بالكمالات لظهر لنا السبب المرجح لهذه
الدولة السنية العثمانية على سواها بأكمل وجوه الامتياز والاحترام . وسماحة
كل دولة مقرونة بهم رجالها ومنازعهم الشريفة ومبادئهم التوتية . ولم

نسمع عن دولة من تلك الدول عمرت ستة قرون وهي في كل هذا العدم الطويل
مثال الشرف والمجد والاحترام لآداب الدين الكريم . يسى خلفاؤها
الراشدون في تمجيد وتقديس الشعائر المليية وتأيد وتأيد آثار الشهامة
والحكمة والسداد ومضاء العزيمة

وليس بغريب ما رواه بعضهم عن اتصال نسب خلفاء هذه الدولة
المؤسسين لها على التقوى بذرية الرسول صلى الله عليه وسلم وأن الجد الأعلى
لآل عثمان الاطهار من عرب (صميم) الابرار الذين هم أقرب العرب للنبي صلى
الله عليه وسلم والصقهم بلحمته المباركة . فاذا صح ذلك كانت هذه الشمايل
الكريمة التي تتجلى بابهى مظاهرها وأجل كمالها في هذه الدولة السنية شمائل
محمدية طاهرة تمثل أخلاق المصطفى الكريم صل الله عليه وعلى آله وصحبه
البررة الكرام . وكان اللازم الواجب على الامم الاسلامية باسرها أن
تقدس آداب الخلافة الشمانية وتظهر بمظهر الاحترام الدينى الخطير الشأن
لجلالة مولانا الأطهر سلالة الطاهرين الابرار سيدنا ومولانا الخليفة عبد
الحميد خان

ولا يسعنا في ختام هذا الفصل الا أن نقول : إن الشرائع باسرها
وحدت أخلاق الأمم من حيث اتصالها بأسباب السعادة المرجوة لعقلائها
وتوحيد الاخلاق يقتضي توحيد العوائد وهذا يقتضي توحيد الحقوق
والنظام السائد والشرعية المقدسة . لذلك رأينا أن نطرق هذا الباب الذي لم
يطرقه سوانا وأن ثبت أن أحوال الامة الاسلامية على اختلاف مناشئ
الاخلاق فيها يجب أن تكتنف بشعور التوحيد المقدس . ويلزم على ذلك
أن ما يجب للخليفة العام يجب لامته وما يجب لهذه يجب لكل فرد منها .

وكذلك ما يجب على الخليفة واجب على الأمة وأفرادها
 هذا ما أردنا إيرادَه في هذا الكتاب الجليل الوضع فله يصل إلى
 أذهان المسلمين كافة في مشارق الأرض ومنازلها ليكون لهم بمثابة خطيب
 يعلمهم واجباتهم نحو إمامهم العام وخليفته المحترم الرأي والأمر والكلمة
 وقد بسطنا فيه ما لو قرأه أمراء الإسلام الكرام لخضعوا بسببه للسلطة
 الدينية المقدسة العظيمة التي أصبح عرشها الدعيم قارراً في دار السعادة
 (القسطنطينية) ولم يزل بنا القلم إلى ما يوغر صدرنا أو يوجب عذراً . فأننا بفضل
 تعالى وعنايته التزمنا الحكمة في التحرير وقدّمنا للأُمم الإسلامية خير هدية
 تزكي الأخلاق وتربي النفوس وتحفظ الأسرار من الشطط والشذوذ .
 وماذا عسى يقول الفرقة الفجرة بعد ذلك في هذه النصوص المقدسة التي
 أوردناها والنقول الغير المحتملة لتأويل أو تخريج المحتملة على كل فرد من
 أفراد الأمة أن يكون مؤدّب اللسان مهذّب النفس مشدّب الخلق مع
 خليفته وإمامه مملوءاً من الرهبة والاحترام لا يفتات على قانون أو نظام . . .
 ومن اقترف أثماً واعتدى على هذه الحقوق المفصلة وجب قتله أو نفيه أو
 إيذاؤه حتى يرجع وينيب ويثوب تائباً قانتاً خاضعاً لمرشد الدين وأحكام
 الوزع الشرعي المقدس الذي لا خلاف في أنه من أركان الدين وقواعد
 الشرع الشريف المحمدي

وحيث أننا افتتحنا هذا الكتاب بمقدمة بينا فيها الغرض من وضعه
 وجب أن نختمه بخاتمة نبسط فيها أسباب ونتائج الأدب الشعبي الصحيح مع
 تبين شرائط الاستحقاق للخلافة التي دونها الشرع في كتبه وضمنها نصوصه
 القويمة وأحكامه السديدة المحكمة . ولذلك نكتفي في الكتاب بما فصلناه من

فصوله والله وليّ التوفيق وهو الهادي الى أقوم طريق نسأله تعالى
 أن يكون لنا خير عون في كل أمورنا وشؤوننا وأن يؤيد
 دولته ويحمي دينه أنه هو الجواد الكريم ذو الفضل العظيم
 وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه
 وسلم عدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى كلماته
 صلاة وسلاماً يكونان خير عدة لنا
 في الدين والدنيا والآخرة
 آمين



﴿ خاتمة للكتاب متممة ﴾

لم يبق ريب لدى جميع الأمم الإسلامية في أن الإمامة العامة للهي حق
جلالة مولانا الخليفة الأعظم والامام الأكبر سيدنا ورسولانا أمير المؤمنين
الغازي في سبيل الله السلطان (عبد الحميد خان) أطال الله أيام دولته وأحكم
أمر خلافته وجعله سرمدى السعادة والسيادة ومنحه الحسنى وزياده .
ولولا ذلك لكنت الاضطرابات في أمر الاستحقاق جارية مجراها سائرة
سيرها في الأمم والشعوب . ولما كان هذا الكتاب موضوعا لبيان آداب
الولاء وحقوق صاحب الاسترعاء رأينا أن تذيله بنبذة ختامية لجميع فصوله
نقيم فيها الدلائل القوية على تفنيد مزاعم المرجفين المفتريين الذين فتنوا
المؤمنين بمفترياتهم المعيبة

يدعون أن الخلافة في قريش وأن آل عثمان ليسوا مستحقين لانهم غير
قريشيين . هذا كل ما يتخذونه سبباً لمدم الاعتراف بالخلافة والإمامة لآل
عثمان الاطهار . واذا أردنا أن نساجلهم في نزاعهم رأيتهم يفرّون من الحق
فرار السليم عن الاجدم والاجرب . بل يفرّون من العدالة ويثرون في كل
ملاء بما يجعلهم مضطهدين في كل أمة . ولو أنهم وقفوا وقفة الباحث المدقق
ونناظر ونافي ذلك لأقنعناهم بالدلائل السنية والبراهين الشريفة المقدسة . ولكننا
لا نرى لهم ظلاً يخطر على أرض بل كلما حاولنا خطابهم ومحاججتهم تراكضوا
متخاذلين لا يثدين بالآكام أو ملتجئين بالبلاد الاوربية . ومن غريب أمرهم
أنهم اذا دعوا الى الولاء قالوا انما نحن نشدنا الحرية والمساواة ونطلب العدل

والحماية عن الحقوق المقدسة الرعية في كل أمة عربية اسلامية . فنقول لهم .
لكم ما تطالبون وتنشدون فتعالوا ننظر في مطالبكم ونبحث في مقاصدكم فترام
قد ولوا الادبار وحاولوا الفرار وتشيعوا في أنحاء البلاد شيئا وبآوا بعصبي
الله عليهم ولجنة الناس أجمعين

ولما كانت دلائل حياة الابرار لا تتصل بمزاعمهم ولا ترتبط بمطالبهم
نري اهمال أمورهم وتركهم يتخبطون في أحوالهم ويضربون في حديد بارد
لا نسمع لهم قولاً ولا نحمد لهم فعلاً أولى بهم لعلمهم بهتدون الى سبيل الحق
الذي لا مراء فيه . أما حصر الخلافة في قریش فلم يقل به أحد من الناس أبداً
بل نطق الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
بوجوب الطاعة لأولياء أمور المسلمين أيأ كانوا وفي أي عصر يكونون
وفسرت ذلك السنة الشريفة بالتعميم أيضاً . وأما الحديث المتري على النبي صلى
الله عليه وسلم المقول فيه (الخلافة في قریش) فلم يصححه راو من الرواة
الأئمة بل اتخذه بعض المؤرخين بمثابة مزينة أثرية لقریش . والآن لو كان
هذا الحديث صحيحاً لما ناقضته أفعال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وأعمال
الصحابة وأقوالهم . ولولا أن المقام مقام اجمال لسردنا بالتفصيل كل المفندات
لهذه المزاعم من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة الخلفاء
الأربع رضوان الله عليهم أجمعين

ولا يليق بنا أن نلقت الى أحلام الاغبياء وأوهام الادنياء . فان النماية
بهاترر في أذهان البسطاء لهم شأننا خطيراً مع أنهم ينحتون بالسنة سفهم من
الجمال الصلدة أحكاماً ويوهمون الدامة أنهم علماء عارفون بواجبات دينهم الذي
يفترون عليه أنه ينكر خلافة غير قریش . فايخسأوا فاننا قالوهم ومبعضوهم تحقيقاً

لحكم الدين فيهم . . وقد كنا وعدنا بأن نذكر شروط الخلافة الموجبة لاستحقاقها . . وقد آن أن الوفاء بذلك فلنأت على ما ذكره الأئمة الأطهار في ذلك . .

أجمع الأولون على أن الإمامة أمر ديني لا ينظر فيه إلى أحكام العقل التي يخلفها بمقدماته التي يستتجها من قضايا الأحوال والأهوال . . والصبغة والجلدة واللغة لا تؤثر على موضوع ذلك . . لأن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم عامة لا خصوص فيها ولا اختصاص بعربي أو فارسي أو تركي أو تكمروري . . وخليفته يجب أن يكون محثياً مثله في العمومية . . ولو كانت اللغة مثلاً شرطاً في استحقاق الخلافة لذكرها الأئمة ضمن شروطها وكذلك الجلدة والصبغة لو كانتا من شرائط الاستحقاق لما أهملتا في مأثورات الدين . . وحينئذ فالقول بأن الخلافة لا تكون إلا في قریش قول لم يقله عاقل من العقلاء أو عالم من العلماء بل هو هدير لا يباح لما فيه من إيقاع التشتت بين العامة الذين هم أقرب إلى التقليد من سواهم لأنهم قد يبنون عقائدهم على ظواهر يتقونها من أقوال بعض المتزيين بزى العلم والمعرفة . . فالدين وحده هو المحور الأساسي الذي تدور على أحكامه رحي الخلافة . . وأما اللغة والجلدة فلا اعتبار لهما في موضوع الخلافة لما علمت لأن الخلافة أمر ديني محض لا يتوقف الإذعان به والاقرار والتسليم له على صبغة أو جلدة . . بل متى توفرت الشروط الستة في شخص وجبت إقامتها ووجب التسليم بها ومن خرج على حائزها فكأنما خرج على الدين ووجب على جميع المسلمين أن يقاتلوه ويهجرروه ولا يدينوه في حياته . . لأنهم إذا أعانوه فكأنما ساعدوه على كفره أو فسقه وهذه الإعانة محظورة في الشريعة المقدسة الطاهرة

وشروط الخلافة الستة المجمع عليها من سائر الأئمة هي : الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والذكورة وعدم الفسق بجارحة أو اعتقاد : فهي طارها فرد من أفراد المسلمين وجبت له الحقوق التي للرسول صلى الله عليه وسلم . وللخلافة آداب وشرائط تكميلية وأحكام عمومية وواجبات انسانية بسطناها ضمن فصول هذا الكتاب . يحيط بها كل قارئ له .

قال العلماء في شأن الإمامة ما يأتي .

وليس كل من يصلح للإمامة يصير اماماً بل لا بد من النص على ذلك إما من الله أو رسوله صلى الله عليه وسلم أو من الامام السابق أو اجماع الأئمة وهذه الشروط مرعية في حالة الابتداء والاختيار . ولذلك يعزل ان كان على غير الصفات المعتبرة شرعاً أو تغلب علينا في حالة الابتداء .

وخصوصاً اذا فقد الأوصاف المذكورة — الى أن قالوا

فوجب نصب الامام حكم شرعي من أهم الواجبات ولذلك اشتغل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين به عن دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتأخر دفنه يومين . اذ ورد أنه توفي يوم الاثنين ودفن في يوم الأربعاء . ولا يجوز تعدد خليفة ومن خرج عليه يجب قتاله .

وان السلطة الدينية لا يتأتى انفكاكها عن السلطة النظامية في الإسلام وبين المسلمين لأن الدين حظر العمل بغيره فيما بين أهله وانما سياسة الملك بمثابة أمور فرعية يراعى فيها التطبيق الشرعي على مصالح الامة الحقيقية .

فيظهر من كل هذا أن الإمامة ثابتة باجماع أهل الرأي لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان النازي (عبد الحميد خان) لانه بلا ريب ولا وهم مسلم بالغ رشيد عاقل حر ذكر تقي صالح لا يعرف فسقاً ولا يقصد ثلماً لدين الله العزيز

الحميد . وقد أجمع على استحقاقه الخلافة كل عقلاء أمته ونودي باسمه خليفة على منابر المسلمين في سائر الأنحاء الإسلامية التي بلغها استواؤه على عرش الإمامة الكبرى . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على استحقاقه ضمناً حيث شرح أحوال من يجب أسداء الأمر اليهم من بعده . وقد انطبقت أحكامها على هذا الإمام العظيم . فلا يعزل بسبب من الأسباب أبداً إلا إذا حض على كفر أو افتات على شرع الإسلام والمسلمين — حاشاه من ذلك — فهو الإمام الذي عرفناه تقياً صالحاً ورعاً زاهداً ذا آميال شريفة وآمال طيبة كريمة . سلك رضي الله عنه مسالك السلفاء الصالحين فصرف قلوب رعيته عن الاشتغال بغير الدين كما قدمنا لك ذلك مفصلاً في بابهِ . وعلى هذا أصبح مولانا الخليفة موضوع آمال أئمة الإسلام ومرجع احترام جميع أفرادها . وانا أول المدعين بذلك القائلين (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان إمامنا بعد الخلفاء الراشدين السالفين اليوم هو جلالة الإمام عبد الحميد خان . فابقه اللهم أبداً وأيده سرمداً وأصلح أحواله وأنجح آماله وقدس في الأئمة آمياله وانصر جيشه وارفع كلمته وأتم سنته واحفظ له عرش خلافته يارب العالمين)

هذا وفي الختام نرفع أكف الضراعة والابتهال الى الحق جلّ وعلا أن يوفق الرجال الكرام . أهل الرأي في الإسلام . الشرفاء النخام . والصدور العظام . أعوان الولاء العام . ومظاهير الاخلاص التام . لجلالة مولانا الإمام . ألا وهم وزراؤه الاخيار . وأصراء مماليك الاطهار . الذين أيدوه وعززوه ونصروه وحجوا مركزه بالروح والمال المتألف منهم مجلس الوكلاء والنظار والمتشرف باشرافهم كل ديوان ونظام كصاحب النخامة الصدر الاعظم

وصاحب الدولة وزير الحربية والبحرية وصاحب الدولة وزير الخارجية
وأصحاب الدولة وزير الداخلية والنافذة والمالية ورئيس مجلس الشورى وأعضائه
وسائر الذين لهم صلة بحكومة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وبالأخص
السادات الكرام . الأشراف العظام . العلماء الأعلام . وصاحب الخاتمة
والدولة والسماحة مولانا شيخ الاسلام وموضوع ثقة الأنام في الترائي العام .
نختص من هؤلاء السادة . أهل السعادة والسيادة . والكرامة والوفاء .
والشهادة والولاء . المولى الحبيب النسيب الشريف العظيم رفاعي زاده
سيادتو سماحتو صدر الصدور العظام السيد محمد أبي الهدى أفندي الصيادي
مرشد أهل البداية . والآخذ بأيدي النهاية . امام السلوك . ومبين السبيل .
الأشرف المسلوك . أخلص المخلصين لمولاه . وسبب اختصاصنا بسماحته
هو أنه سبق فأبان مزاياء الأدب مع الأئمة أولياء أمور المسلمين في كتب
حجة لو وسعها المقام لسردناها

قوم سماحتهم غيثٌ ونجدهم * غوثٌ وآراؤهم في الخطب شهبان
تلقاهم ورماح الخط حولهم * كالأسد ألبسها الآجام خفان
صانوا الذنوس عن النجشاء وابتدلوا * منهم في سبيل العلياء ما صانوا
المنعمون وما منوا على أحد * يوما بنعمي ولو منوا لما مانوا
نفع الله بهم الاسلام والمسلمين ووقفهم لأن يكونوا دائما لرضاء
جلالة الخليفة محرزين آمين

تقريظ الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله الحق . والصلاة والسلام على سيد الخلق . أقول : إن
من مثيرات أسباب الرضاء العام . ومن دواعي اكتساب ثقة الانام ظهور
القوم بمظهر الولاء الصحيح لصاحب الخلافة النظمي . وعرش الامامة
الأسمي . وإن أجل مرشد لآداب الامم . وأصدق دستور للهم . هذا
الكتاب الجليل الذي قام بتأليفه حضرة الشهم المريق . والفاضل الصديق
محمد بك حلمي صادق نجل المرحوم علي باشا صادق ناظر المالية المصرية
سابقاً وصاحب ومحرر جريدة الأفكار

ولما كانت الحالة الباغية والنمشة الطاغية قد تجاوزت كل أدب وحادث
عن كل سبيل قويم كان لهذا الكتاب العظيم سلطان على النفوس معتزم .
خصوصاً وأنه قد جمع فأوعى من آداب وقواعد . وفضائل وفوائد . لو
رسخت في نفوس الامم لفازت بسعادة الخلال والاستقبال . واورأت
عقلاءنا حاولوا تخليص السرائر القومية من أخلاط الفساد العمومي وشوائب
الاعتداء على الحقوق المقدسة ووقفوا بارشادهم الصحيح مواقف الوزاع
الأمناء . الحافظين لعهود الوفاء والولاء . لكانوا قد أدؤوا ما وجب عليهم
لدينهم وأممهم . ولكن أئني يكون ذلك من قوم آثروا الرقعة على النهضة
والاضطراب على الثابت في الحكمة وبسط أسرار الرحمة على العامة
والخاصة .

وعلى كل حال فنوجز في المقال ونسادي مع مؤلف هذا الكتاب المفيد بوجوب الاعتراف والاذعان لجلالة مولانا أمير المؤمنين السلطان الفازي عبد الحميد بالامامة والخلافة لأنه هو وحده القائم بدين الله فينا الرئيس الشرعي والرازع المرعي . ويجب على كل ملاء من أملاء المسلمين في مشارق الارض ومغاربها أن يتخذوا هذا الكتاب بمثابة دستور عملي وقانون شرعي يسرون على منهجه القويم الذي يدلّ أشرف دلالة على خواص السعادة التي لا تستثار أسبابها الا بالترييض والاستبصار في حقوق الجماعة الشامية الاسلامية

وفق الله حضرة المؤلف الكريم سليل الكرام العظام الى ما فيه خير الأمة والدين ليكون خير قدوة لغيره من الاتراب والاخذان . وفي الختام ندعو لجلالة مولانا الخليفة الأعظم بتأييد العرش وتأيد السيطرة العامة على سائر الأمم الاسلامية وغيرها في ظل الدين القويم وتحت الرعاية الصمدانية والعناية الرحمانية ان ربي قدير على ما يشاء وهو حسب المخلصين ونعم الوكيل ويحمل بي أن أنشط حضرة صديقي المؤلف بتمنئته بما وفق اليه من خدمة ولاء الأمة والجمع بينها وبين امامها في حظيرة الوفاء والأدب العام أكثر الله من أمثاله في البلاد الاسلامية حتى يستعيد المسلمون ما فقدوا ويتقوا الله فيما وجدوا ويحسنون صنعاً . جمعهم الله جميعاً على الهدى ووفقهم لما فيه نفعهم ونفع دينهم القويم . آمين

محمد محمد الشربتي

صاحب جريدة النهج القويم

بمصر